الله الذي لن ينصرهم

(الطريق إلى ماهاتن)

أحمد أبو زيد

أعتذر للغة العربية وللقراء عن المشكلة التقنية التي تسببت في أخطاء الطبعة الأولى.

محمود عبد الموجود مرسي.

www.ebibliomania.com

+201065534541
+201208868826
fb.com/Books.Bibliomania/
بيبلومانيا للنشر والتوزيع
fb.com/bibliomania.eg/
insta.books.bibliomania/
Books ـ بيبلومانيا
fb.com/groups/Bibliomania.Books/
@BibliomaniaEg

رواية

الله الذي لن ينصرهم

(الطريق إلى مانهاتن)

أحمد أبو زيد

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال، أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو: بطريقة إلكترونية، أو بالتصوير، أو الترجمة إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

❖ **الكتاب:** الله الذي لن ينصرهم "معركة مانهاتن"
❖ **المؤلف:** أحمد أبوزيد.
❖ **نوع العمل :**رواية.
❖ **الطبعة الأولى 1440 هـ 2019 - م- القاهرة.**
❖ **الناشر:** ببلومانيا للنشر والتوزيع- مصر.
❖ **رقم الإيداع:**
❖ **" "ISBNالترقيم الدولي:**
❖ **تنسيق وإخراج:** بسمة أباظة.
❖ **تدقيق لغوي:** سمية الألفي، غادة عادل، محمود عبد الموجود مرسي.
❖ **الغلاف:** شيماء صلاح.
❖ **المدير العام:** جمال سليمان.
❖ **العنوان 27 :شارع جمال الدين دويدار، من عباس العقاد – مدينة نصر - القاهرة ،38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة.**
❖ **تليفاكس:** 0020226061014
❖ **محمول :**00201210826415 –00201065534541–00201208868826
❖ **صفحة فيسبوك:** **https://www.facebook.com/bibliomania.eg**
❖ **موقع الدار:** www.ebibliomania.com

書誌事項

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء تعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ولا مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع.

إهداء

أن تكتُبَ مأساةً و أنت تتعايشُ بمأساةٍ أخرى، تلكَ مُعادلة لا يفهمها سوى من سبر أغوار الحالة التي استفقتُ منها بالأمسِ القريب؛ عندما نقشتُ بقلمي كلمة "تمَّت بحمد الله".

إلى كلِ الشعوب المقهورة تحتَ سيطرةِ الإمبريالية، إلى المظلومين، والمكلومين، والمشردين، إلى مفزوعي الحروب والكوارث، إليكُم أكتب...

إلى كل مآسي الناس، وأوجاعِهم، وأحزانِهم، أُهدي هذا العمل... العمل الذي دشنتُ منه فلسفة جديدة، نسجتها بخيالي، وصنعت منها و اقعًا حلوًا رغم مرارة التفاصيل...

إلى الوجهِ النبيل للمأساة، والوجه القبيح للسعادة، إلى الحزن الذي يَغار فيُهاجمنا في أشدِ لحظات فرحنا.

إلى قلمي الذي تعكزتُ عليه، وتعكزعليّ، وقتما انفضَ من حولي الجميع وقتما آثرت العزلة، ولعنت لَغو الحديث...

إلى مزاجيتي السيئة التي تتقلبُ كموجةِ إذاعة في أثيرٍ حيران، أشكرُ سوءاتك، ولعناتك، وغضبتك، فلولاهم ما استطعت أن أُحلّقَ فوقَ

سحابةِ الحالة، فأسبحُ في أبطال العمل، وأعززُ علاقتي بنفوسهم، وأزيلُ جدار الثلج القائم بيني وبينهم.

إلى الشيخ طيشة، وإلى الشيخ توبة، أُشهد الله أني أحبكما، و أفخرُ بكما.

إلى وسادتي وفراشي، وأربعاءِ الرماد، ونسيمِ الذكريات، وخلجاتٍ في النفس تعتمل لا يعرف أثرها إلا أنا، وأرقامٍ بعينها تلمع في عيني، وأصواتٍ بأنفاسها تزقزق في أذني بالإيحاء، إليكُم كتبت، وسوف أكتب، فكنتم جميعًا خير صحبة وخير رفيق...

إلى رُفقاء الكلم "ورشة السعادة" بكل من فيها من مُحاضرين، ومُتدربين، ومُصممين، ومُدققين...

إلى صغيرةٍ تقول لي مداعبةً: أُحبُك... انتبه لنفسك... لا أريد إلا سلامتك؛ فأكتفي باهتمامها عن اهتمام نساءِ العالم أجمع، وتكفيني حروف اسمها عوضًا عن حروف اللغة متراصة... إلى صغيرتي الأنيقة "ابنتي".

إلى باكورة أعمالي التي صنعتني، وجعلتني أقف على أرضٍ ثابتةٍ لا اعوجاج فيها...

إليكم جميعا أهدي هذا العمل.

كل ما ورد في الرواية من عبارات في كتاب مغمور، أو على ألسنة بعض المشايخ هي عبارات من خيال المؤلف.

مقدمة "١"

العمل الروائي بشكل عام هو عمل وصّاف لجغرافيا وتاريخ؛ سواء كانت تلك الجغرافيا نفسية أو تضاريسية، وسواء كان هذا التاريخ مؤطرًا بعنصر زمني، أو متروكًا لذهن القارئ استشراقه من خلال النسيج الروائي، المهم أنه لا يمكن بأي حال من الأحول أن تنفك الرواية عن التاريخ، فكيف بنا ونحن نطالع عملًا روائيا خصص كامل قدراته الكتابية كيما يضيف إلى عمر القارئ أعمارًا أخرى لم يعايشها بتفاصيلها الحسية والمادية، بمأساتها ونتاجاتها ومسبباتها، ولو افترضنا أنه عاشها فلربما كانت تلك المعايشة معايشة متقطعة عبر وسيلة إعلامية تبث ما تريد تمريره من خلال مضمون خبري، أو على وجه ثالث كأن يكون أحد أبطالها الواقعيين المعاصرين لها؛ فعادة الأزمات أن يبقى الفرد منشغلًا بمنطقته، ولا تتعدى مدركاته إلى بقية الأبطال المشاركين من حوله.

سنَّ سيد قطب قلمه في كتاب النقد الأدبي حين قال:"التاريخ لا يدخل دائرة الأدب إذا كان وصفًا مجردًا لحوادث ميّتَةٍ، ولكنه يصبح عملًا أدبيًا إذا انفعل المؤرخ بالحوادث وصوَّرها حية ممزوجة بالأحياء الّذين اشتركوا فيها كما لو كان يكتب قصة كائن حي، لا قصة حادثة".

في رأيي: إن هذه المقولة بمثابة الصكّ المُوجِز لأي عمل تاريخي منضبط في جوانبه الثلاث "المادة التاريخية، الصياغة الروائية، الخيال".

وإن الجهد المبذول في الرواية التاريخية يكون أضعاف أضعاف غير المدرجة في التصنيف، إذ إن الكاتب يقوم بدور المؤرخ كما يقوم بدور الأديب على حد سواء؛ ويوازن بينهما فلا يطغى أي منهما على الآخر وإلا تحول العمل إلى كتاب تاريخي سارد بتقريرية بحتة تلك الحقبة المنوط به الحديث عنها، مجحف بحق فنيات السرد الروائي، أو تحول إلى رواية ذات خط درامي متصل ومتناغم، ورغم ذلك يجدها القارئ تحمل من الزيف التاريخي ما يجعل سهام النقد تصيب كبدها دون هوادة.

حاجتنا للرواية التاريخية في هذه المرحلة الأدبية - التي يغشاها الكساد الفكري، والانحطاط القيمي، والجهل المعرفي- أشبه بحاجة ظمآن في صحراء قاحلة والموت منه قاب قوسين أو أدنى؛ فتراه ينتظر والرجاء يملؤه، يستجدي القطر من كل باب كيما يبقيه على قيد الحياة، فإن أنزلته السماء هلل وكبر، وإن فجرته الأرض سجد وشكر، هكذا حال

القارئ الباحث عن الاستزادة من حيوات أخرى ذات تفاصيل حضارية لم يصب إليها.

يقول "جورجي زيدان" في مقدمة رو اية "الحجاج بن يوسف":

"إننا نتوخى جهدنا في أن يكون التاريخ حاكمًا على الرو اية لا هي عليه كما فعل بعض كتبة الإفرنج"

من هاته المقولة ومن باب الأمانة الأدبية، فإنني بصدد التقديم لعمل رو ائي استطاع كاتبه أن يحقق المعادلة الصعبة في كتابة هذا النوع من الأدب، استطاع أن يضفر الحقائق التاريخية المأساوية بالمعالجة الرو ائية التي تبقي شغف القارئ متأججًا دون انطفاء مع ذاك الخيال المتروك لجامه كيما يضفي بظلاله المشوقة على عنصري السرد والحوار.

قلم لم يكتف فقط بالعرض التاريخي المادي وحسب، بل آلى على نفسه أن ينقل القارئ إلى مسرح الأحداث، أو ينقلها إليه، ولا يهم الكيفية، المهم أن يحياها القارئ حياة تامة دون نقص، ولم يكن ذلك ليحدث لولا أنه استطاع أن يسبر أغوار النفوس البشرية التي هي العنصر الأساس الذي يقوم عليه العمل كونهم الرواة المحدثين عن مأساة "البوسنة" و"الهرسك" بكل ما تحمله كلمة مأساة من معنى، فتجده يؤرخ لهاته الأنفس بكيانها الوجداني والجسدي، يُجلي دو افعَ وفلسفاتٍ وقيما

وفكرا وثقافةً وظروفا اجتماعية يصعب الوصول إليها من خلال القراءة التاريخية المتجاهلة للصبغة الرو ائية.

نهلة الهبيان

مقدمة " ٢ "

ولما كانت "البرغماتية الميكافيلة" تقوم على مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة"، والمعزز بقول واضعه: "على الأمير أن يتصرف كالحيوان، عليه أن يقلد الثعلب، والأسد في نفس الوقت" فقدم مبررًا تنام عليه ضمائر الساسة والقادة بمختلف مسمياتهم، ولما كانت القومية خدرًا تسلل واستوطن في عقول العوام فأخضعها للعواطف، وسلمها لمسلمات الأمور، وغدت الانتصارات "بالوكالة" يفرح بها ممسكها حينا دون أن يعي أن لصاحبها الأصلي حق استردادها متى شاء ؛ بات على العقول الواعية بعمق الفن السياسي أن تُجلي العتمات، وتُظهر الحقائق، وتُتمم أنصاف الجُمل.

و إنما مكرودهاء السياسة لا يُطْحَنُ إلا تحتَ بر اثن فطنة وذكاء الأدب، فإن هو لم يمحِّص ويتفحص ويكشف، وبقى القارئ بعد القراءة على ظلامه القديم، فكأنما هو وزبد البحر واحد إذما بلغته فأمسكته، ما أسقط في يدك غير غثائه.

والكلمةُ التي لا تفعل بجهلك فعل العواصف بالرُغام فتزعزع الثقة المنبثقةَ عنه حين تصدِّر لكَ الواقعية المؤلمة، وتزيحه -جهلك- عن موضعِ ركوده كاشفةً ما استترتحته وجودها وعدمه سواء.

والسياسة أضحت كالخادمة البغي؛ ظاهرها الطهر، ومستورها العهر. فإذا ما امتزجت بالتاريخ فكأنها استحالت من خادمة إلى سيدة تحلت بالجواهر، وأُرِّجت بالطيب، إلا أن البغاء أبى أن يستحيل عنها أو أن يأفل.

وهنا يقدم لنا الكاتب شهادات لا تقبل الدحض، بل تلتهمها العقول، فترجم أنت ساعتئذٍ بغاء الغباء السياسي، قبل بغاء السياسة وساستها، وتفغر فاك ذاهلًا حين يتناغم وهج المعلومة مع متعة الحدث الروائي، وجبروت السرد، لكأنها معزوفة متناغمة لا شذوذ بلحنها، ولا انقطاع.

يفُكُ كاتبنا في روايتهِ هذه لجامَ الحذر، ويُلقي بقنابله على سكون عقلك، متعديًا على تفكيرك دون إذنٍ منك، ومتجرِّئًا -ربما- على سلب قناعاتك، وتشريد بصيرتك، دون أن تستطيع استردادهما، ثم يُلقي عليك بقناعاتٍ جديدةٍ ترتدُّ إثرها بصيرتك، لكن دون ثوبها الأول المهلهل، بل بثوبٍ سمَّكتهُ الحجج، وخاطتهُ البراهين.

لتوقن فوق يقينك -إن وُجد مسبقًا- أن مادةَ حوادثِ السياسة هي المكر، وأرضُ بوتقةِ التاريخ هو التزييف والتعتيم، وأن الإسقاط الموجع في الرو ايات منهجُ تَمَيُّز الأدب.

فلتستعدَّ هنا لعواصف لا تنتهي، فأنت في طريقك إلى منهاتن.

أبد الحاج

تمهيد

"الله الذي لن ينصرهم؛ حتمًا سوف ينصرنا"

«العدُّ قد بدأ»

أحمد أبوزيد

القيصر كومودوس

"نحنُ الذينَ سنموتُ أمامك حالًا، نُحيّيك".

ظللتُ أردّدُ تلكَ العبارة المختنقة في حلقي و أتساءل: تُرى ما الذي يجعلُ الرجل منّا يفقد حياته فداءً ودفاعًا عن حياةِ رجلٍ آخر؟ وَجدتني أُجيبُ على نفسي: بأن القناعة هي ملكٌ متوجٌ على عرشِ السلوك؛ فلو تملك أحدهم من قناعتِنا لاستطاع أن يسيّر حياتنا كيفما شاء! وأن يتحكم في سلوكياتنا وقتما أرادَ! فالاستحواذ على قناعاتِ الناس، هو نوع آخر من السحرِ، غير ذلكَ الذي نعتاده فتَذهبُ عقولنا، وتتيبس أطرافنا، السحر ها هنا في أن المُستحوِذ عرفَ مداخل ومخارج المُستحوَذ عليه، وغازلَ عواطفه فقبض على مفاتيحه، وأضناه عبدًا للعواطف، ولاسيما لرغباتِه.

مالَ السائقُ بي في منعطفٍ قاسٍ في طريق العقبة، فانغلق ذلكَ الكتابُ الذي بين يديّ من أثرِ الرطمة، وهرعت عيني إلى عداد السرعة، ثم ما لبثت دقاتُ قلبي أن هدأت، بعدما اتزنت السيارة من جديد في يمين الطريق، لكن الفزعة جعلتني أصرخ في أذني السائق قائلًا:

- "شوي شوي يا صديق، لماذا أنت مسرع هكذا؟"

هز السائقُ الهندي رأسه، تعبيرًا عن استجابتِه لمطلبي، ثم ابتسم ابتسامةً صفراء تنمُ عن سعادته الكامنة في صدره بأنه استطاعَ أن يقذفَ الرعبَ في صدري، بينما هو مُستقر لم يتحرك له ساكنٌ! فحزمتُ حقائبَ صبري، وهزمتُ ذلكَ الضيق الذي انتابني، وعُدت بناظري أبحثُ عن تلكَ الصفحةِ التي استوقَفتني فيها عبارة العبيد!

عبيدُ القيصر "كومودوس" الذين كانوا يتعاركون، في ساحاتِ القصر؛ فيفقدُ أحدهم حياته من أجلِ تسلية النبلاء، وحاشية القيصر، ثم ما لبثتُ أن ارتديتُ زيهم، وأمسكتُ بذلكَ العرق الخشبي الذي سأنازلُ به خصمي، وأدافعُ به عن حياتي، يهللُ الجمهورُ تفاعلًا مع قوتي الجسمانية، و ربما يضحكونَ وهم يتناولون خمورهم، بعدما يُفقدُني خِصمي حياتي فأصبحُ جثةً هامدةً وسطَ ساحةِ النزال.

حاولتُ أنْ أتعايشَ تلك الحالة التي كانت تصاحبُ أحدهم، أشعرُ بما كانَ يشعرُ به، هل كان الخوف يزوره؟ أم أنَّ ثقته في قوتهِ كانت خيرَ معين، وزادَت اليقين في قلبه بأن الحياةَ لن تطردهُ منها الآن؟

أوصدتُ حاسةَ الشعور الزائد، التي أتميزُ بها، وتعايشتُ مع حروفِ الكاتبِ، و انتقلتُ معها حيثُ موقع الحدث، وبدأتُ أحللُ كل حرفٍ وأستقرئه، رافقتني الشفقةُ على حالِ هؤلاء الذين دُفنوا بدمٍ بارد،

ور افقتني الثورةُ على ضحكاتِ النبلاءِ، الذين صَنَعوا من جثثِ الناسِ جسرًا لسعادتهم اللحظية.

هكذا هو حالُ الدنيا، القوي يبني سعادتَه على تعاسةِ الضعيف، يزدادُ تجبرًا وظلمًا حتى تأتي نهايته، وإنْ لم تكنْ النهايةُ عادلة بما يكفي في منظورِنا؛ المهم أنَّ الظالمَ مهما ظَلَمَ له نهاية؛ ينبلجُ معها تاريخه الظالم، وتبقى الذكرى وحدها كنذيرٍ عاصفةٍ تهب في صدورِنا متى ظهرَ طيف ظالمٍ آخر!

الآن قد فقدتُ شهيتي في القراءةِ، وإنَّ تلكَ الأوجاعِ- التي أهداني إياها صديقي الكاتب في ذلكَ الكتابُ الذي لا يحمل حتى اسمًا، والذي يُحاكي واقعًا تخللَ جدارَ الزمن لآلافِ السنين- قد آلمتني حقًا، جلستُ أقلبُ في صفحاتهِ كمن يطالعُ مجلدًا، أو يطوي صورًا ليومِ زفافه الذي انتهى بالطلاقِ والفراقِ، فلا هو محب للذكرى، ولا هو قادر على أن يتوقف عن تقليبِ الصور.

لمحتُ تلكَ العبارة المنزوية في جانبِ الصفحة ناحية اليسار، طالعتها بتلك العين التي تَلمحُ ثم تزوغُ حيثُ عداد السرعةِ في السيارة، ثم لساعتي التي تحتسبُ كمْ تبقى من الوقتِ لوصولي إلى بيتي ودائرتي، أعودُ لصفحات الكتابِ، ثم أبحثُ ثانيةً عن تلك الجملة، أستقرئها على طرفِ اللسان، وفي الحقيقة كنتُ خائفًا من هضمِها! أنا أعرفُ جيدًا أنني لو

فعلت، لذهبتُ خلفها في ألمٍ جديد، غيرذلك الألم الذي صنعه صديقي الكاتب بعبارتهِ الأولى، ولكن على ما يبدو أنه لا مفر!

يقول صديقي في كتابه المغمور: "إنَّ الذين يصنعونَ المجدَ من دماءِ شعوبهم لا يستحقون لقب "البشرِ" كلقب رسمي لآدميتهم، وإنَّ الشعوب التي تسمح لحاكميها بأن يبنوا مجدَهم من فوق جثثِهم، لا يستحقونْ الحياةَ، ثوروا تصحوا، ثم دعوا ثوراتكم لشأنها وليعلم الساجع والضاجع، أنَّ أصحاب أنصاف الثوراتِ لا يملكون شيئًا سوى حفر قبورهم".

تذوقتُ نكهةَ تلك الحروف، تلذذتُ مطعمها، وسمحَ لها حلقي بالمرور، وعانتْ أمعائي عملية الهضم، فمثلُ تلك الحروف لا يُهضم قبل أن يُمضغ جيدًا، وكعادتي أتعجلُ البلعَ.

يُفاجئُني السائق الهندي بمنعطفٍ آخر، يحملُني إلى نفسٍ وتيرة القلق التي كنت أحياها منذُ قليل، وإذ بثورتي تشتعلُ وأصيحُ فيه:

-ألا تفهم أنت؟ أقولُ لك، هدئ السرعة يا أبله!

-يا مدير هذا طريق كله أنا معلوم.

ثم نظر لي في المرآة المتوسطة في السيارة، وهو يقول:

"أنت نوم، ما في خوف، أنا كله معلوم كله معلوم".

ابتسمتُ لثقتهِ الزائدة، ويقينه بأن الطريق الذي حفظه لن يخونَه، وصاحبتْ ابتسامتي أصوات ضحكات ساخرة ليست منه على الأرجح، إنما من كل هؤلاء، هؤلاء الذين يَقنَعون بأن تمرسَهم قد يفوقُ النصيبَ، ويخالف الأقدارَ، ويكشفُ سلامةَ القادمِ، ونبل المستقبل، واختتمت تلك الضحكة المُتهكمة بغلقِ ذلكَ الكتاب العويص، وقررت أنْ ألجأ إلى السكونِ، كصديق آخرير افقني بهدوءٍ حتى أصلَ إلى وجهتي.

وقد كانت وجهتي تلك مُختلفة عن وجهتي السابقة، وشتان الفرق بين الوجهتين.

أمّا وجهتي الأولى؛ حيثُ مطار "جدة" الدولي، ثم إلى أحضانِ "سر ابيفو" كنت حينها أعتقد أنها الوجهةُ الأخيرة، أو ربما ليست الأخيرة، لم أكن أعلم، أو سوف يكون لي وجهات أخرى، أم أنَّ حياتي كانت ستقبر في تلكَ الأراضي؟!

عالمٌ جديد أشرق محياه لمَّا عزمتُ على الجهادِ، تلبيةً لنداءِ حكامنا وقادة بلادنا الذين ناصروا وآزروا بمُساندتهم إخوانا المكلومين في "البوسنة." كنتُ أعرف أنني أحمل روحي على كفي، وإن تعرجَ بي الطريق ومالت الكف فستسقط روحي فداءً لنصرة الإسلام. وتبقى نيتي، وسلامة عزيمتي، في التضحيةِ بمتاعِ الدنيا لأجلِ متاعٍ لا يزول ولا ينقض.

الطمع في منزلة الشهداءِ، وضمانُ صك الجنة، فضيلةٌ لا يعلمها إلا ذوي المرجعية الإيمانية أمثالي.

لا أنكرُ أنَّ الخوف قذفَ قلبي لمّا استقبلني ذلكَ الرجل الخمسيني بصوتهِ المتحجر، ولحيته الكثيفة المُتداخلة! ريثما قال:

-لا وقت لدينا للتعارفِ، الحربُ قد أكلتْ شغفنا بالمعرفة، كل يوم تتقلصُ بدواخلنا مساحةُ الحياة، ويغزوها شبحُ الموت، حتى إذ ما وصلَ الرجلُ منا إلى مخدعِه، يقول: "اللهم إنْ كتبتَ لي الحياة غدًا، فإني مُتصدق بها لبعد غدٍ، وأنْ اقبض روحي في ساحاتِ القتال، لا في مخدعٍ أنا فيه مسلوبُ اليقظةِ والسلاح".

كنتُ أستمعُ لتلكَ العبارات في الآن نفسه الذي كان يصطحبني فيهِ إلى مركزِ قيادة المجاهدين ويسبقُني بخطواتٍ، وأجرُّ أقدامي خلفَه مهرولًا، محاولًا مجاراة سرعة خطواته، لم يطالعني حتى وهو يتكلم، بل كانت تتقافزُ كلماته مع صوت أنفاسِه الذي لا يهدأ، بينما كانت تنزاحُ من على وجهي تلك الابتسامةُ السمجة التي ارتسمت رغمًا عني، ثم ما لبثت أن اختفت تمامًا، وحلَ محلّها الصمت المُتسائلُ بألوفِ الأسئلة.

رأيتُ في ذلك المعسكر عشراتُ الجنسيات الناطقين بأن لاَ إله إلا الله رغم اختلافِ اللهجات، وطريقة النطق، ولكن حدود الخرائط قد أُزيلت ها هنا، ومُحيت تلك الخلفيةُ المُتغطرسةُ، التي تميز العربي على الأعجمي،

الكل سواء، والأسبقية في الوصولِ تُخوّل لصاحبها مقاليد القيادةِ وصناعة القرار، وقد ألقاني حظي إلى كتيبة الشيخ "إدريس نايك" الجهادي المُحنك التابعة للواءِ المجاهدين العرب، ولحسن حظي أنني تدربتُ على يدِ هذا الرجل الستيني، وبفضلهِ رأيتُ الهنودَ بشكلٍ آخر غير ذلك الذي اعتدته في دائرتي.

الشيخ "نايك" ما إن تراهُ عيناكَ وهو يتحدثُ، حتى تقع في شباكِ الإعجاب به، فهو يتحدثُ العربيةَ بطلاقة، ذو خبرة عسكرية، وخلفية حربية مميزة، ويجيدُ صناعةَ النكات التي بدورها تخففُ التوترَ، وتزيلُ القلقَ الذي حلَّ ضيفًا لا يبرحُ نفوسَ المجاهدين، وفي الوقتِ نفسِه هو صاحب النبرة الغليظة التي يملؤها التحدي والإصرار بالنصرِ، محتميًا بيقينهِ وإيمانهِ في أنَّ الله الذي نصرهم حتما لن ينصرنا بالتسويف القابع في أعماق نفوسنا.

سُمرته كانت تُشعرني بالتآلفِ العرقي، وسماحةُ وجهِه كانت تخترقُ عضلاتَ صدري، يتملكُني الصفاءُ إذا ما طالعته، وسمعتُ محاضراتهِ، وباتَ قُدوتي فعليًا، حتى أصبحتُ لا إراديًا أقلدُ انفعالاته، وطريقته في الحديثِ، ووصل بي الحال أنني أصبحتُ أقلدُ مِسكتَه للسلاح.

انخرطت في صفوفِ المواجهة، وحُملت بعشراتِ المهمات، وفي كلِ مرةٍ كنتُ أتساءل بيني وبين نفسي:

- هل سَأعود؟ ولكن هذا السؤالُ رغمَ قسوتهِ لم يكنْ يُضاهي تلك اللحظة التي صوبتُ فيها فوهة بندقيتي تجاه صدر صربي!

أتذكرُ حينها لمّا كنتُ أضغط على زنادِ الموت، كنتُ أُحدثُ نفسي قائلًا: - يا تُرى، هل ارتكبَ ذلكَ المسكين جرائمًا استحقَ على إثرِها أن يموتَ الآن؟ أم أنه عبدُ المأمور، ولا حيلة لهُ للرفضِ، وعصيان الأوامر.

-"الآن يا أبا حمزة، أَطلِق رُصاصَتكَ".

كان هذا هو صوتُ رفيقي في الصفِ "أبي سلمى"، يُشجعُني لأن أفعلها، ومع صوتهِ المتكرر في أذني بشكلٍ هامسٍ خافتٍ، ومع صدَى ذلكَ الصوتِ في أعماقي، أغمضتُ عيني وأطلقتُها، ثم فتحتها سريعةً؛ لأر اقبُ سقوطه؛ لكنه لم يسقط!

ابتسمتُ حينها ابتسامةً خفية، ونظرتُ إلى أبي سلمى نظرةَ أسفٍ، لأنني لم أصب الهدف، الأسفُ ها هنا كان ممزوجًا مع السعادةِ التي لن تدوم طويلًا عاجلًا أم آجلًا، سوفَ يسقطُ غيره برصاصي، وإنْ لم يسقطْ هو، سوف أسقطُ أنا بكلِ أسف.

هكذا هو قانونُ الحروب: إنْ لم تفعلْ، سيُفعلُ بك، ولا مجال للإنسانيةِ أو للرحمةِ، غَلِّف قلبكَ المسكين، بورقٍ خَشن وألقهِ جانبًا؛ فلم يعد لنبضهِ أهمية تُذكر؛ سوى أنْ يضخَ الدم؛ لتستمر في الحياة؛ واستمرارك

في الحياة مبني على أن تسلب حياة غيرك، ومهما استمرت حياتك، لن تدوم طويلًا!

تذكرْ لن تدومَ طويلًا، هي فقط إلى حِين.

وإلى ذلك الحِين، ومن ذلك الحِين، صارتْ رصاصتي تُسقطُ صربيًا بعد الآخر، ولأنني سئمتُ العد قررتُ أن أتنازلَ عنه، رغم أن غيري يتفاخرُبه، وبعضهم يدونوهُ في مذكراتِهم الحربيةِ الخاصة، كأوسمةِ انتقامٍ وردّ للشرفِ، واستعادة لهيبةِ الإسلام.

لكنني لم أنضمْ لتلك الكتيبة من التعابير، مازلتُ أعيش بقليلٍ من الإنسانية التي تسلبُني حقَ التفاخربأنني أفقدتُ غيري حياته، ولو بدافعِ الحربِ، ورد الشرف، والدفاع عن الهويةِ الإسلامية، وعِرض الأرض.

وصارَ هذا السؤالُ من أصعبِ الأسئلةِ التي أتلقاها، ولا أجيبُها إلا بالصمتِ.

كم صربيًا قتلتَ اليوم؟

أصلي على النبي-صلى الله عليه وسلم-، ثم أغربُ عن وجهِ سائلي.

الخوف الذي حطَّ

لَم أتنازل عن ذلكَ الرفيقِ، الذي صحبته معي مُنذُ بدايةِ رحلتي، كتابُ صديقي المجهول المغمور في الآن نفسِه ، صرتُ استمدُ منه النصائح والتعليماتِ الحياتية بشكلٍ غير مباشر، وصارَت ذَخيرتي الحيةَ لاصطيادِ الأفكارِ من وكرِ غاباتِها، ثُم تفحصّها وتأمُلِها في أوقاتِ الحراسةِ وأوقات ما قبل النومِ؛ لا فائدة مرجوة من التفكيرِ في الموتِ أثناء تلكَ الساعات القليلة التي نَتقلبُ فيها على فراشِ النومِ، يكفيني أنني أُقابلُه في كل مواجهةٍ يُحدّثُني وأُحدِّثه، يصافحُني وأصافحُه، ثم يكتبُ لي الله حياةً جديدةً بمعجزةٍ كما أحسبها، كم مِن رصاصاتٍ اخترقَت جُدرانًا بجواري؟ لا تفصلُها عَني سوى سنتيمتراتٍ! وكم من صواريخ انفجرتْ في البقعةِ التي أقطنُها على خطِ المواجهة؟ وكم من: الحمد للهِ نَجونا؟ أسمعُها من ألسنةِ رفاقي، أرددُها بفرحٍ، ثمَ يَكسوني الخوفُ، ويستعصمُ اليأسُ محلَ اليقين، بأن: لا تفرح؛ ففي ذات مرة سوفَ يُصيبُ ذلك الصربي، وسوفَ تتوقفُ معجزاتُ نجاتك، لأن موعدُكَ قد آن لتُلاقي حياةً أخرى، حياةُ ما بعدَ الحياة.

لم تَعُد تلك العباراتُ التحفيزية التشجيعية بجائزةِ الاستشهاد تُغريني كثيرًا، مازلت شابًا أتمنى أن أستمتعَ بدُنياي، أفوزُ فوزَ الطامعينَ بآخرةٍ النعيم، ودُنيا مُتزنة سعيدة، لمَ لا؟ وهُناك غيري، فازَبهما؟

لم أعدْ أرغبُ في الموتِ كالسابق، صرتُ أتحسس جدًا انتقاءَ موقعي، و أتحسسُ خطو اتي بشكلٍ مَرَضي، وصار الموتُ شبحًا لا أطيقُ اقتر ابه بعكسِ الشهور الأولى التي كُنت فيها استقبله استقبالَ المُضيف المِضياف بطائيةٍ غير معهودةٍ في عالمِ الأحياء.

تجذرت تلكَ المشاعرُ في نفسيِ أكثرَ عندما ر أيتُ وجهَها الملائكي، وقوامها فَرنسي الطَلة، وعيناها المُتسعَتين، ولعينيها حكايةٌ لم ولن أنساها.

رُبّما نرى في حَياتِنا الكثيرَ من النساءِ الباكياتِ، فنتأثرُ تارةً، ونعتادُ بُكاءهن تارةً أخرى، ولا يتحرك لنا ساكنٌ في أغلبِ الأوقاتِ، لكني يومها ر أيتُ القمرَ يبكي فتنسابُ دموعه متتابعة في مجرى خَديه، وكأن العبرات خطوط من اللؤلؤِ المتحركِ، وهو يقطعُ مسافاتٍ في حديقةٍ امتلأت سماؤها بالصفاء.

أخذتْ عقلي وقلبي، حينَما كانت تتنفَس بين كلِ دفعةٍ من البكاءِ والتي تَليها، فينتفضُ جسدُها، وينعقدُ ثَغرها كطفلٍ بريء المحيا والملمح، ثم تعاودُ بكاءها، وهي تنطقُ بعباراتها غير المفهومة إلا ما ندرَمنها.

ربما هي وقاحةٌ مني أن أتتبعَ أثرَ الجمال في مشهدٍ مأساوي، تحكي فيهِ هي عن معاناةِ وأهوالِ الحربِ، وجرعاتِ الألمِ التي نالتها، وتعرضها للاغتصابِ من جنودِ الصربِ، هي وأخواتها وبنات عمها، لكن البحث عن الجمالِ لا يعرف توقيتات، ولا مواعيد.

ربما تملكتْ قلبي حينها بأثرِ الشفقةِ التي تلحّفَتني تعاطفًا مع أنوثتِها الثائرة، ولكن هذا لا يمنع أنَّ لهذا الجمالِ أثرا آخر في امتلاكِ قلبي.

أعددنا القهوةَ والشايَ على النيرانِ المتجمعةِ فوق جثثِ الأخشاب، وقدّمناها لها ولرفيقاتِها النازحاتِ من القصفِ الصربي، وبدأنا في بثِ روحِ الطمأنينة والأمانِ في قلوبهن. وتقديمِ وعودٍ لا جذورَ لها سوى في إيماننا بأنَّ النصرَ قادمٌ؛ والانتقام حليفُ الأبواب المؤصدة التي إذا ما فُتحت؛ انهالت جيوشُ الردّ على العدو بكلِ كراهيةٍ وبغض.

تدفقت الأُلفة في نفوسِنا تجاههن سريعًا، وعززَ هذا الشعور، الدفءُ الرباني الذي كسى موقعنا رغم البرودة القارسة التي تدبُ أظفارها في مسامِ الجسد، شممتُ رائحةَ الأمان تنبعثُ من زفيرِهن، و انقلبت ملامحُ وجوههن من حالةِ الخوف والذعر، إلى حالةِ التسليمِ الكاملِ للقدر، وتعليق السعادةِ على القادم، أيًا كانت قسوته.

كنَّ ست نساء يحملنَ نفسَ الملامحِ القريبة التي تَسري في جيناتِ العوائل المتجمعة برباطِ النسبِ، وكنا نطوقُهن وكأنهن أهلُ بيتنا، ولا أعلم نوايا

زملائي المجاهدين، هل كانوا مثلي يَتلصصون على جمالِهن؟ أم أنا وحدي مَن انعدمَت أخلاقُه، وحولَ نيرانَ القصفِ إلى مياهِ القذف؟

راح خيالي يعبثُ في جمالها، و أنا متكئ على بندقيتي في نوبةِ الحراسةِ، أراها عروسا في أبهى حللها داخل بيتٍ جدرانه من الطمأنينة، وأرضيتهُ من رخامِ الأمانِ طويلِ الأمد!

كنتُ أسترقُ النظرةَ إلى الخلفِ بين الحينِ والآخر لأقطع وصلاتي الخيالية، أطالعُ وجهها الناعس الذي خلد إلى لحظاتِ النومِ، ثم تنهضُ رأسها فجأةً، وكأنها خائفة من أن يسرقها النومُ ولا تفيق منه ثانيةً، أصواتُ القصف تتناثرُ من حولنا، وكأنها احتفاليتهم بأعيادِ رأس السنة، السماء كتل مضيئة تومضُ وتختفي، والنارُ التي نخافُ أنْ تحرقنا، هي نفسُها النارُ التي يلتففن حولها هي ورفيقاتها، وقدْ وضعن على أكتافِهنَّ أغطيةً من الصوف.

أنا أيضًا أحتاجُ ذلك الصوف؛ لتدفئة بشرتي التي لم تتعودْ أبدًا تلك الأجواء.

سمعت تقطيعات في صوت المذياع، الذي يحاول ضبط إشارته رفيقي ليستمع إلى أخبار سياسية! أي أخبار تنقذ موقفنا السيء؟ أي حلول دبلوماسية يلقيها الكبار! تنال قبول الأطراف المتنازعة، ونكف عن التصدق بأرواحنا، ونستعيد تشبثنا بالحياة؟

الناس تغني من حولنا في الإذاعات، موجات الأثير تتراقص بين كل محطة وأخرى، وفي الشرق يقيمون المقابلات والتنبؤات! ونحن ها هنا تحل فوق رؤوسنا ومضات الصواريخ، نجلس على طاولة التكهن، هذا سيصيب، وهذا لن يصيب، بينما تتعالى سعادتنا بأنه لم يصب، تنتكس أعلامنا مرة أخرى، لأنه حتما قد أصاب جماعة أخرى مثلنا، هم اليوم ضيوف على شرف الهلاك!

تتآكل النار التي تحمينا من صفعات البرد، بيد أن النار التي تحلق فوق رؤوسنا، لا تنطفئ، ولا تهدأ، متى يتحول المشهد، وتتوهج نيران تجمعنا، وتختفي نيران مخاوفنا وهلاكنا؟

شعرت للحظة أنني جئت إلى هذا المكان بالخطأ، أغلب الظن أنّ كل من حولي لا يهابون الموت، وربما يعلنون ذلك لملاطفة الشجاعة، ودفع الحماسة في قلوب بعضهم البعض، بينما يبطنون الخوف منه مثلي، وربما أكثر.

تكاثر ذلك الشعور بالندم داخلي، وددت لو أخذت تلك العروس الجميل، وهربنا سويا لعالم يحيا في سلام، أذيقها الحب، وتذيقني الحنان، هكذا هي الحياة، أما ما أنا فيه الآن ليس أقل من جهنم، التي سنُلقي فيها أعداءنا إن أصابت مدافعنا رؤوسهم المدنسة.

على الخط الأمامي، تترامى أجساد المجاهدين بجواري كل حسب موقعه، يترقبون أي هجوم صربي، أنظر بين الحين والآخر على يميني و أتساءل: ترى هل يخاف الموت مثلي؟ ثم أنظر لليسار، و أتساءل: ترى هل لديك أسرة تشتاقها كاشتياقي لأسرتي؟

سيول من الأسئلة تتزاحم في رأسي، لو تركت لها العنان لخطفتني على ظهرها كجواد جامح لا يعرف للرقود موطنا.

لم تمر سويعات، حتى أرسل مركز القيادة عددا من المجاهدين لاصطحاب اللاجئات المحتميات بكتيبتنا، فقد بلّغ قائد كتيبتنا القيادة العامة فور العثور عليهن.

ذهبن جميعهن مع إخو اننا المجاهدين، وقد انزلقت من عيني نظرة وداع مطموسة بالأسف والتمني!

أما التمني لِمَ لم أكن ذلك المبعوث من مركز القيادة؟ و أنتج حزني على انفصالهن عن كتيبتنا سخطا عاما على مركز القيادة بمن فيه من قادة وشيوخ.

لم أستطع إنكار غضبي الذي تحول شيئا فشيئا إلى نوع من أنواع الكره، صحيح أنه ليس ذلك الكره الذي سيضر أو يقتل، لكنه كره يتخلله استنكار.

لِمَ أنتم وحدكم من تملكون صلاحية القرارات؟ نحن مثلكم نضحي بأرواحنا فداء لنصرة "البوشناق"[1] ومن ثم الإسلام؟! أي عدالة تلك التي تقسّمنا لتلك الأقسام؟ في بادئ الأمر لم أستشعر تلك المفارقات، ومع مرور الوقت تفهمت جيدا أن المجاهدين فصائل ودرجات.

هذا هو المجاهد العربي الجديد الذي لبى نداء القادة، وسمع صرخات المسلمين، وهرع لمكان الحدث يقدم روحه مع باقي إخوانه فداءً لنصرة الإسلام، ويطلب الشهادة بكل إيمان واعتزاز، وهناك مثله الكثير، وهذا هو المجاهد العربي أيضا، ولكنه ليس كأي مجاهد آخر، هو من الكتيبة القادمة من أفغانستان، والذي ساعد وجوده في الحرب "السوفيتية"[2] على تكوين علاقات جذرية بباقي المجاهدين، ومن ثم أصبح ذا شأن، وصاحب موقع وقيادة. ولمثل هؤلاء تترك القرارات، ونسير نحن خلفهم كالقطيع، أما المجاهد الأعجمي فهو وقود الحرب، وذخيرة الشجاعة، فببأسه تصعق كل الماكينات الأوربية، ويتمدد القادة في خيامهم بكل أريحية وطمأنينة وضمان للنصر.

---

1 - مسلمو البوسنة والهرسك.

2 أثناء احتلال "الاتحاد السوفيتي" لأفغانستان في الثمانينات.

لم أكن أتخيل أنّ التفرقة قد اخترقت صفوف الجهاد، وكنت واهم لما شعرت من قبل أنّه هنا تتساوى الرؤوس، وتسقط الألقاب!

التمييز دائما يصنع المفارقة، والمفارقة بدورها تصنع الأحقاد وتولد الضغائن، وإنهم صانعوها.

توسدت بندقيتي، وألقيت بجسدي على تلك الأرض الصخرية، فصنعت الزوائد المدببة في ظهري ألما، ولكن ذلك الألم أرحم مرات من انتصاب قامتي لساعات طوال يقظا منتبها، وألم انتصاب قامتي، لا يعادل واحدا على ألف من ألم فراق تلك الجميلة التي رق لها قلبي، ولا يقارن بحجم الغضب الذي تملكني من تلك المفارقات، التي لا ينفك العرب من صناعتها، سواء في جذور الأوطان، أو حتى في صفوف المجاهدين!

إنها العادات والثقافات! هكذا نحن نشأنا، وسنظل، وسنموت، وستحيا أجيال بعد أجيال بتلك المفارقات نفسها، ويظل من هم مثلي فقط، يكتمون غضبهم دون قدرتهم على الإفصاح!

ما فائدة الإفصاح إذا؟ خصوصا لو كان كمثل ذلك الإفصاح، الذي يلتف لسماعه الإخوة المجاهدون في الراديو الآن!

ابتسمت ابتسامة ساخرة، كانوا يلتفون حول المذياع، وكأن فيما سوف يقال خلاصهم! ليصطدموا بأنّ ما قيل هو تسويف لا فائدة منه، وشجب وتنديد أقرب للطم النساء من كونه موقفا سياسيا لساسة يحركون

الموقف من ركوده! كنت أؤمن بأن ذلك الخبر الذي ينتظرونه لن يغير شيئا؛ لذلك لم أبرح مكاني، ولم أعتق ظهري من ألم غرس تلك الصخور فيه، وظللت أراقب خيبة رجائهم من على بعد حتى احتضنت الأرض أجسادهم من جديد، كما كانوا من دقائق معدودة.

راقبت تلك النظرة الحزينة في عيني أبي سلمى وشحوب وجهه وقد تضاعف على ضعفه! أشفقت عليه بحق شفقتي على نفسي، وقلت:

-هوّن عليك يا رجل، إنا نحتسب الأجر عند الله.

طالعني بنظرة سريعة، وكأنه لا يريد سماع صوتي، ولا التركيز بكلماتي، ثم وضع رأسه بين فخذيه، وعانقهما بذراعيه.

دنوت مقتربا منه وربت بيدي على كتفه، وناديته:

-أبا سلمى، هل أصابك مكروه؟

أجابني بتمتمات لم أسمع منها شيئا، فقد غاصت رأسه بين فخذيه، وصار صوته متهدجا، لا يتبين منه سوى خشونته.

قلت: أفصح يا رجل، وارفع رأسك، مازلنا على عهدنا، واليقين سلاحنا.

سمعت صوت قهقهته من داخل فخذيه، ثم رفع رأسه وحملق فيّ بنظرة مأسوفة وأردف:

-تالله ما عرفت لليأس طريقا إلا ها هنا، في تلك الأرض، أتعرف لماذا؟

قلت: لماذا؟

قال بصوت يشوبه الوجع: لأن العالم أجمع تخلى عنهم وعنا، أصبحنا في معزل، رغم أنّ أصوات صراخنا لا تكف، ولا تهدأ.

تنفس بصوت مسموع، وأخذ شهيقا طويلا، ثم قال:

أكثر ما يؤلم أن ترى المظلوم يُظلم، وتديروجهك بعيدا؛ حتى لا يقولوا إنّه رأى وصمت؛ ولا تهتم أو تبالي بوضعية المظلوم؛ وهو تحت أقدام الظالم.

لم يتسنّ لي وقتها أن أهدئ من ثورته المشتعلة، زحفت بعيدا عن مجلسه، عائدا حيث موقعي، وتمددت ثانية فأخرجت من جانب معطفي المموه ذلك الكتاب، رفيق الرحلة والعذاب.

قلّبت صفحاته، التي سئمتني وسئمتها، حَفِظت نظراتي، وحفظت حروفها، وأشرت بإصبعي كمن يعبث بآلة لا يجيد استخدامها، ولم أنتبه من الأساس إلى أي الفقرات أشير!

تمعنت النظرة عند تلك العبارة، ناظرتها بعين الواعي المدّرك؛ فإذ بصديقي المغمور يرسل لي رسالة بين طيات كتابه مفادها: "إن الشجاعة ليست فقط في جرأة الإقدام، وليست هي عدم الخوف؛ هذا يخلطها بطريقة يستحيل تمييزها عن التهور أو الجهل بالخطر. إنما الشجاعة هي

القدرة على توزيع الخوف على الأخطار بشكل متناسب"، الشجاعة هي أن نعرف مما يجب أن نخاف وكم؟ ومما لا نخاف؟ وإن تقدير الحجم الو اقعي للخطر، يتطلب الهدوء والقدرة على التفكير باتزان، و أنت على بعد شبر من أنياب الموت" .

شعرت حينها أنه لزاما عليّ إما أن أتنحي عن موقعي في الحرب، أو أن أواصل فأصل.

أصل إلى هناك، حيث موقع القادة، وصولي إليهم سيمنحني هذا التميز الذي أعاني غروبه عن وجهي، وسأحظى بالمفارقة، التي آوت إلى أحضان مجاهدي الحرب الأفغانية.

أشرقت نسمات الفجر، وهمّ المجاهدون لرفع آذان الفجر، اغتسلت وتوضأت وجددت النية، وعزمت الوصول...

وراوده الذي

"في الوقت الذي سترفرف فيه الأعلام وتعلو الأناشيد الوطنية، وفي الوقت الذي سيبدأ فيه ذكر التاريخ والدين، يمكنك أن تكون متأكدا بأنّ إر اقة الدماء ستبدأ من جديد لأجيال جديدة، إنهم لا يعرفون ذلك الآن، ولكن ذلك يحدث"

في محطة جديدة من محطات التأمل توقفت عند تلك العبارة في الكتاب المغمور، وتساءلت: ترى ما الذي ارتكبه "الشعب البوسني" من أخطاء حتى يتكبد كل تلك الخسائر، وحتى يمارس ضده منهجية التطهير العرقي بتلك الآلية!

لم أكن أعلم حجم تلك المآسي، إلا بعدما تعايشت وسطها، ور أيتها وسمعتها، وفجعت لفجعها، وزاد إصراري على أن أكون جزءا من حلم التحرير والخلاص لهذا الوطن، ور افقت هذا الإصرار بجوار إصراري السابق، وعزمي بالوصول.

لم يكن أمامي طريق آخر للوصول سوى أن أتسلل إلى قلب أحدهم -أحد المجاهدين صناع القرار- ومر افقته كيما أقدر على الدخول إلى تلك الخيمة، واعتمادي عضوا حيويا في مصنع القرارات، ولحسن حظي أو

ربما لسوئه، مرض قائد كتيبتنا الشيخ "نايك" بالإضافة أن الشكاوى كثرت تجاهه، وسُرّبت في شكل رسائل ورقية لمركز قيادة المجاهدين، من سوء قراراته، وتعسفها في بعض الأحيان! أحالت القيادة الشيخ "نايك" إلى التقاعد، وهذا هو الشكل الصحيح للنقل الذي نفذه شيخنا، فقد صدر القرار بنقله إلى خيمة القيادة العامة، بدلا من قيادته لكتيبتنا وعوضتنا القيادة العامة بقائد آخر، أكثر حيوية وبأسا، وأكثر دهاء.

الشيخ "محمد طيشة"! وتعجبت كثيرا لسماعي اسمه، وضحكت في نفسي، ولكنّه سرعان ما حلّ هذا اللغز بعد ساعات من وصوله إلى موقع الاشتباك.

وقف حينها كالخطيب فوق المنبر، قائلا: -

السلام عليكم ورحمته وبركاته، وصلى اللهم على محمد وسلم وبارك.

لمن يعرفوني، مرحبا بكم تحت قيادتي، ولمن لا يعرفوني، أنا -والعياذ بالله من كلمة أنا- العبد الفقير إلى الله "محمد مرزوق" وكنيتي "محمد طيشة" وأمّا عن سبب التسمية: فإني كنت في بلادي -مصر- رجل لا فائدة مني، أنا والعدم سواء، حتى وسط عائلتي، لم يكن لي موقع في صناعة القرار، أو حتى الاهتمام برأيي، وحتى وسط الأطفال في الشارع، كنت ذلك الـ"طيشة"

ظللت ألعب الكرة في الشارع ثلاث سنوات، ولم أفهم ما معنى هذا اللقب الذي لقبوني به "طيشة" حتى جاء ذلك اليوم الذي حضرت فيه بداية تقسيم الفرق قبل المباراة.

قال قائد الفريق الأول: سوف آخذ فلان وفلان وفلان، هكذا نحن خمسة لاعبين

ثم وجّه حديثه لقائد فريق الخصم، وقال: وأنت معك فلان وفلان وفلان، وهكذا فريقك أكمل الخمسة لاعبين ولا تنسى أن تأخذ "محمد مرزوق" هو "طيشة".

ضحك كل الأطفال، ولكن عضلات وجهي تيبّست، وظللت أبتلع في ريقي، من أثر الحرج!

ألعب في الشارع ثلاث سنوات على أنني عدم، زيادة في العدد وصفر التأثير والفاعلية.

جررت قدمي حينها منسحبا من أرض الملعب، متجها إلى بيتي، والدموع تنساب من عيني، وظللت أردد: أقسم أنني سأصبح ذلك الـ"طيشة" الذي له أثره ووجوده وفاعليته.

تفاعل المجاهدون مع قصة الشيخ طيشة، وظلوا يهللون: هذا أنت يا شيخ، تالله قد صدق قسمك، وأصبحت صاحب الشأن والهيبة، سديد القرار، رفيع المنزلة.

يرد عليهم: بأنه العبد الفقير إلى الله، ثم يغازلون قصته من جديد، ويرد بالاستغفار، واستنكار العظمة، وينسبها إلى رب العزة جل علاه.

ظلّت تلك التقاسيم تتأرجح منه إليهم، ومنهم إليه لأكثر من خمسة عشر دقيقة في التقريب، ثم أنهى خطبته أو كلمته حسب توصيفه لها، بأنه: طامع في النصر، ولن يأتي النصر إلا بالتكاتف والتعاون والمشورة والمشاركة.

كنت أراقب المشهد من بعيد، وأمسك بثلاث حصوات، ألقيهم من كف إلى أخرى، لا حاجة لي بمدحه، ولا حاجة لي بالتهليل تفاعلا مع ما ذكر من قصته الداعمة لمشواره الجهادي، وخلال مراقبتي توقفت عند هذا المشهد السحري الذي استطاع فيه الشيخ "طيشة" أن يعزف على عاطفة المجاهدين فكسب ودهم دون عناء، تماما كما ذكر صديقي الكاتب المغمور في قصة عبيد القيصر "كومودوس"!

حاشا لله أن أصور الشيخ "طيشة" بصورة "كومودوس" الوقح، ولكني لم أمنع ذلك التشبيه، أن يتخلل لجلبات المجاهدين، من كونهم سيموتون من أجل رفعة الشيخ "طيشة".

العبيد ليسوا هؤلاء الذين يفقدون حرياتهم، بل هم من تخلوا عن عقولهم ووضعوا مكانها مصابيح وقودها الكهربائي كلمات قادتهم وساستهم، ولكني صرت جزءا من تلك اللعبة، وأصبح الشيخ "طيشة" هو بو ابة العبور بالنسبة لي إلى هناك، حيث مركز القيادة.

إنّ هؤلاء المجاهدين القادمين من أفغانستان ساعدتهم الفرصة في معرفتهم بحرب "السوفييت"، ومن ثمّ تسنى لهم الطريق إلى تمديد علاقاتهم ببعضهم البعض، أصبحوا كيانا متكتلا، ليس ذنبي أنني لم أكن أعرف الطريق إلى هناك، ولكنّي بالفعل لن أتخلّى عن حلم الأمير.

أمّا أميرنا الحالي، فقد أصدر قراره بتحريك كتيبتنا من موقعها، لأننا أصبحنا هدفا مكشوفا لقناصة الصرب، الذي يحاصرون المدينة.

"سر اييفو" المدينة العريقة، ببناياتها الدالة على تاريخ "البلقان" والتي ضمّت تحت سمائها عشرات الأعراق والأجناس، هي "القدس" الأوربية، ولكنها فجأة تحولت إلى جائزة المتصارعين والمتحاربين؛ ليس لشيء سوى لبسط النفوذ، وإعلاء القوميات العرقية حسب معتقدات المتطرفين بأفكارهم.

كنت أستمع إلى غناء المواطنين البوسنيين في شوارع العاصمة تحت الحصار، بينما كانت تنتقل كتيبتنا إلى موقع آخر، تعلو صيحاتهم بتلك الأغنية الشهيرة.

"سراااايفووو" وتشتعل الحماسة في قلبي، يردد لساني معهم متمتما بغير فهم! وكأنني طفل يحاول أن يقلّد أصوات المطربين دون إدراك لم يقولوه.

تعجبت لطاقة الوطنية التي تفجّرت عيونها من وجوه المواطنين، ورغم أنّ الحصار في أشدّه، والقصف لا يقف، ولا حتى لالتقاط الأنفاس، إلا أنّهم ألقوا بأرواحهم في الشوارع، ينددون ويهتفون!

رأيت مشاهد حية للعلم "اليوغسلافي"، وهو محترق، ولافتات تلعن "بلجراد"[1] وصورا لـ"سلوبودان"[2] تمسك ألسنة اللهب في أطرافها، بينما حاملها ينظر لها بكل عزة وفخر، وهو يتابع تمدد النيران، لتأكل عينه -سلوبودان- ثم شفتيه ثم يصبح رمادا.

"سلوبودان ميلسوفيتش"، فتيل اشتعال الأحداث، ووقود الحرب على البوسنة، فقد أجرم في حربه ضد "البوشناق"، وصُبّت لعنات المسلمين، ودعاؤهم في كل مكان صبا فوق رأسه، وكلنا أمل أن يستجيب الله، ونرى فيه بديع صنيعه.

---

1 - عاصمة صربيا.

2 - رئيس الاتحاد اليوغسلافي.

لم تزل الحماسة تدق في قلبي، وأجرّ قدماي جرا، أطالع صفوف المتجمهرين، وابتسامة الأمل تعلو ثغري، لكن تبا لنفس "أبي حمزة" الأمارة بالسوء، مازال بصري يبحث عن الجمال! أفتش في صفوف المتجمعين عن امرأة، تخطف قلبي، كما خطفته تلك الفاتنة.

حدثت نفسي بكل ثقة ومكاشفة في آن واحد: لابد أن أتزوج مهما كانت تعليقات المجاهدين، هذا لا يهم، إقدامي على خطوة الزواج ليس ذنبا ولا معصية، سوف أفاتح قائد الكتيبة اليوم في هذا الأمر.

عزمت على القرار، وانتويت التنفيذ، ولمّا حطت كتيبتنا في موقع الاشتباك الجديد، وبدأ المجاهدون في الإنزال ونصب الخيام والعسكرة، انسحبت خلسة، ورحت أبحث عنه -الشيخ "طيشة"- سألت أبا سلمى:

ألم ترى القائد يا شيخ؟

-كان مارا من هنا، منذ بضع دقائق.

ربتُّ على كتفه، وعلى وجهي تلك الابتسامة التي أحمس بها نفسي، ثمّ توجهت حيث أشار لي أبو سلمى، وجدته "طيشة" يجلس على مرمى البصر، وحوله بعض المجاهدين، أو بالأحرى "حاشية المجاهدين".

قلت: السلام عليكم.

قالوا في نفس واحد: وعليك السلام ورحمة من الله وبركاته.

قلت، و أنا أتلعثم:

عفوا يا شيخنا، فإني أريد محادثتك في أمر شخصي.

نظروا إلى بعضهم البعض، ثمّ ابتسموا للشيخ "طيشة" وطلبوا الإذن، وسمح لهم من ناحيته، حتى انفض الجمع من حوله إلاي.

قال مبتسما، وهو يشير بيده إلى مكان بجواره:

-تعال يا أبا حمزة، وتفضّل بالجلوس،

هممت تجاه المكان، وجلست ثمّ أردفت:

بعد الصلاة على محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين.

قال: اللهّم صلي عليه.

حزّمت ركبتيّ بذراعيّ، ونظرت في الأرض ثم قلت:

أريد أن أتزوج يا شيخنا.

ضحك ضحكات مرتفعة، وقال وهو يقهقه:

ومالك تحدثني وكأنني أبو العروس؟

ابتسمت لعبارته ابتسامة صفراء، وقلت: لا وضعك الله في موقف حرج.

قال مستنكرا: وما الحرج في إكمال دينك يا رجل؟

ثم تساءل: كم عمرك؟

-واحد وثلاثون.

-العمر كله بإذن الله.

ثم أردف متسائلا:

-هل سبق لك الزواج؟

قلت: نعم، وعندي حمزة، وزياد، وطارق.

: تبارك الله فيما رزق، وفيما سمى،

ثم أردف: وهل أم حمزة تعلم بنيتك؟

كسى الغضب وجهي، وقلت في حزم:

-وهل في طلبي شيء يخالف رضى الله ورسوله؟

قال: لا ولكني أخاف أن نقيم حياة جديدة، ونهدم حياة قائمة، والأمر كله متروك لك، فما عليّ سوى النصح، يا أخا الإسلام.

قلت بنفس الحزم: لا تقلق يا شيخنا، إني على العدل أعزم و أنتوي.

قال: لن تستطيع، وعلى ما يبدو أن الزوجة الجديدة أخذت من قلبك وعقلك مساحات ليست بالهينة.

نظرت له مستنكرا: أي جديدة؟

- العروس.

- أي عروس؟

ضرب كفا على كف، وقال في اندهاش: - أوجئت تأخذ الإذن للزواج، أم أن الأمر فيه التباس عليّ؟

-نعم يا شيخنا، ولكني لم أخترعروسا، إنما أبديت رغبتي في الأمر.

ضحك بصوت مرتفع، وقال: - ذكرتني بمن يجهز سكينه، قبل أن يجمّع حق شراء ذبيحته.

شعرت حينها بغصة، فهو يتهكم عليّ، نفضت جلبابي، وقلت في حسم: - شكرا يا شيخ... "طيشة".

وأغلقت هذا الباب في وجه رغباتي، وأغلقت معه فرصة دخول خيمة القيادة من اتجاه الشيخ "طيشة"، فلو كانت حياتي بيده ما طلبت قربه ولا مساعدته، وسجلت اسمه في دفتري الخاص، بأنه أول المطلوبين لقائمة اغتيالاتي الخيالية.

ورحت أتذكر كل المطلوبين في قائمتي التي أعددتها منذ صغري، لما كنت أكتب أسماء من يضايقونني، وأتخيلهم أمامي مذلولين متوسلين ألاّ

أسلمهم الحياة، ثم ما لبثت أن أنهيت تلك العادة، ولكن على ما يبدو أنني سأعود لها ثانية؛ فلا حيلة لي لكظم غيظي، سوى بتلك الطريقة.

القدس الأوروبية

استعصم النوم عند أطراف السهر، وأبت عيناي أن تنصاع لأوامر جسدي المنهك، وأعلنت العصيان، وتسرب إليّ ذلك الشعور بالحاجة إلى الدفء، ولكنه ليس كهذا الدفء الذي تبثه قطع الصوف والأغطية الأفغانية، إنما دفء قرب المحبوب الذي يشعل ثورة الجسد بحرارة اللمسة، صرت كقط في موسم تزاوج، أبحث عن شريك يؤنس وحدة مضجعي، ويطبب أوجاعي الحسيّة ويسد ثغرات الاحتياج وتجاويف نداءات الطبيعة البشرية! تذكرت "خلود" والأيام الخوالي قبل أن يقطع أنفاس جمالها تربية الأولاد وطلباتهم، أكل الزمن من مساحات أنوثتها، وتقلصت شيئا بعد شيء حتى نفرت قربها! وصارت فكرة الزواج مرة أخرى تطاردني بشكل مؤرق، حتى جاء قرار رحلتي الجهادية! وفيها في الأساس كنت أبحث عن حور العين! ويا حبذا لو أزيد متعة دنياي بزوجة من أصل أوربي!

-يا ليت يا ليت.

رددت التمني وكأنني أدعو الله بأن يرزقني تلك الزوجة التي ستريح تفكيري وستغلق معها باب الاحتياج.

شردت أكثر في تلك الملامح التي أتمناها، ورسمتها في خيالي كرسام يجالس امرأة طاغية الجمال، ينقل طبيعته إلى لوحة عانقت الزيوت و أبت فر اقها من شدة جمال المرسوم.

تحركت على جانبي الأيمن ووضعت كفي تحت وجهي، وارتسمت ابتسامة الانتشاء على وجهي، وكأنني قد ملكت زمام أمرها فعليا، وصرت أبرحها حبا و أبحر في تفاصيل جسدها اللؤلؤي! حتى انتفضت على صوت أحد المجاهدين وهو يصرخ قائلا:- لقد قصف الصرب موقعا للمجاهدين وراح عشرات ضحايا لهجماتهم البربرية، لم يكد ينتهي من عباراته حتى تعالت صيحات المجاهدين بجواري: إنا لله وإنّ إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإلى جنة الخلد يا شهداء العزة، وغدا سنر افقكم الجنة.

صارت الأصوات تتداخل وتتعالى حتى صرت لا أستطع تمييز ما يقال، وودت حينها لو أصم أذنيّ كي لا أسمع عن ذلك الموت الذي ينتظرني، أضرمت الانسداد على حاسة السمع كمن مسه الجن، ولا يطيق سماع كلمات الله، شعرت بهزة في رأسي ودوارا عنيفا أحلّ بيّ، وكلماتهم تلتف حولي كإعصار بشكل دائري فأزيحها بيدي، والأصوات تتعالى أكثر فأكثر، وترفض نفسي الموت، تكره السماع، الدوار لايزال مستمرا ووقع كلماتهم يزداد في الارتفاع ودويه يخنق حلقي، أرفض المزيد كراهب رفض متاع الدنيا، فأجبر على سماع الموسيقى.

صرخت فيهم دون أن أشعر، وكان صدى صرختي كوقع قطعة حديد في فضاء طلق، وأجاب صداها في اللحظة نفسها التي صمّتت أفواههم عن تكرار ما يقولون، تسلطت نظراتهم تجاهي، وكأن موعد الشواء قد آن، وظفروا بالالتفاف حولي، ابتلعت ريقي وقلت:

-كفانا ندبا على هيئة حماسة، فإنّ صدورنا تئن بالانتقام، هلموا يا إخوان الإسلام لنضع خطة الرد.

صاحوا جميعهم: الله أكبر الله أكبر.

ثم دخل علينا الشيخ "طيشة" وهو ينظر لي نظرة تحمل بطيها وعيد، فإني بعباراتي تلك قد سلبت منه حق الزعامة، التفوا حولي وهللوا لكلماتي، رغم أن كلماتي جاءت من باب انزعاجي مما هم فاعلون لا من باب الحماسة كما يظنون، ولكن الله قد ألهمني ما قلت، وإلا كانوا سيعتبرون دمي حلالا!

تقدم بهيئته الوقورة وكان لخطواته صوت يرتفع كصوت عقارب الساعة في بيت اعتاد الهدوء، وقال في حنق:- خير رد هو أن نلتزم بتعليمات القيادة العامة.

لم تمر ثانية إلا وجاء أحد إخواننا المجاهدين بالمذياع الذي يعمل بالبطاريات متحركا به في أنحاء المعسكر، يسمع ما يقوله المذيع ويترجم، جملة بعد جملة، وهو في وضع ليس بثابت وليس بمتحرك.

ما إن تفاعل مع عبارة تنبعث منها الحماسة في صوت المذيع، تحرك على أثرها ثم ارتفع صوته مصحوبا لتلك الحركة، وتتوهج أضواء اللهب التي تنير المكان وكأنها تزداد حماسة مع حماسته ثم يعود ليهدأ، ويترجم وسط هدوء تام من الأخوة المجاهدين.

صوت صافرة الإنذار يتعالى ويتداخل مع صوت المذياع وينصهران عند حدة ارتفاع صوت المترجم:

"القوات الصربية التي تحاصر عاصمة "البوسنة" لم تكن العدو الوحيد، من الآن وصاعدا ينبغي الأخذ في الحسبان موجة الصقيع القارس، فقد تساقط الثلج وغطى "سراييفو"، وكان ميزان الحرارة بالأمس ناقصا عشر درجات، وهذا يعني صقيعا قارسا يحتمل في مدينة غابت عنها الكهرباء، وينقصها المياه ووقود التدفئة، وقد كسرت نوافذها ودمرت أبنيتها، حتى الملاجئ والأنفاق السرية تحت الأرض التي كان يحتمي بها النساء والأطفال لم تسلم من العبث "الصربي" و"سراييفو" أيضا خسرت حطبها، وصارت معركة البحث عن الحطب طلبا للتدفئة أقل وطأة من خطوط الاشتباك مع الصرب، والحطب هو السبيل الوحيد لكي نظلّ أحياء في الليل شديد البرودة!

ظهيرة اليوم في ساحة القناصين المتملصين سقط رجل عجوز يحمل أغصان الشجر لكنه لم يصب برصاصة صربية، بل سقط بسبب قدميه

الخدرتين وأصابعه المتجمدة تماما. معتقلو سراييفو يعرفون أنه بين الأكثر ضعفا منهم، كالأطفال والعجائز والجرحى، لن ينجح البعض في تجاوز الشتاء، الربيع لايزال بعيدا والمحنة لازالت في بدايتها".

صمت صوت المذياع، وصمت معه صوت المترجم، لكن صافرات الإنذار كانت على وتيرتها لم تنخفض ولم تتوقف، وصوت الرصاص بالخارج يدق ثبوتية الأرض من أسفلنا، ويقذف الرعب أو الحماسة في قلوبنا، كل حسب ثباته ونو اياه.

بدأ الحشد، والتسليح للنزول وسط المدينة مع الكتائب والمقاومة البوسنية، وذلك بالتنسيق مع أحد الجنرالات البوسنيين المسؤولين عن إدارة حرب الشوارع وتصفية القناصة الصرب الذين تعسكروا فوق الجبال المطلة على المدينة، وأرسل مركز القيادة إلى الدول التي أعلنت شجبها للاعتداء الصربي قائمة باحتياجات المدينة من الأغذية والأدوية والأغطية التي تنقصنا، وكذلك بدورها الحكومة البوسنية بدأت في التنسيق لاستقبال الدعم اللوجيستي من تلك الدول.

لم أستشعر أهوال الحرب حتى تلك اللحظة رغم ما رأيته من المآسي وبحور الدماء وقصص هنا وهناك، عن سقوط عائلات بالجملة، وتصفية رجالهم واغتصاب نسائهم، فقد أراد الصربيون تحطيم معنوياتهم النفسية لكسر روح المقاومة ومن ثمّ سقوط المدينة! لكن

المدينة ظلت صامدة تحت الحصار والقصف، وقد التحمت نفسيا في الحرب بعد نزولي وكتيبتي إلى شوارع المدينة، وخصيصا بعدما سمعت من ذلك المتطوع البوسني ما قاله عن بداية اندلاع الحرب في ربيع 92، وكيف انتهج الصرب نهج الإبادة الجماعية؟ وكيف أصبح جار الأمس عدو اليوم؟ بأيديهم قصفوا المدينة التي تربوا وترعرعوا فيها.

كنت أرتعد تلك الليلة، ليس خوفا من الموت كعادتي، وليس من برودة الأجواء القارسة، ولكن نبرات ذلك الرجل البوسني، حينما بدأ الحديث، وحجم الأسف الذي تغلغل من أحباله الصوتية لمّا بدأ في استرجاع المآسي، جعلني أتقزم أمام نفسي! ليس لرغباتي ومخاوفي وتمسكي بالحياة فحسب، إنما لأنني كنت هناك أنعم بطمأنينة وأمان وسط عائلتي وبلدي المستقر، وغيري يطارد الموت لا الموت يطارده!

كانت ليلة شتوية عنيفة البرد، وعنفها جاء من حيث تلك النوبات الهوائية التي كانت تهب فجأة وتخترق مسام جسدي بفعل يعادل اختراق الرصاص عشرات المرات، نفع الرصاص هنا أنه بعدما يخترق الجسد يقتل، أو يؤدي لإغشاء المطلق عليه، لكن رصاص البرد، كان عذابه حقا في أنك تستقبل لعناته و أنت حي يقظ، ترتعش فحسب.

التففنا حينها حول جمر من النار لعلّه يواجه سيول البرودة والثلج المترامي أسفلنا، وقد غطينا رؤوسنا العربية التي لم تعتد على تلك

الأجواء الأوربية، وظلّ خالد الشاب البوسني يعزف أوجاعه على أوتار الشتاء، صرنا نستمع للذي يقول تسيل دموعنا مجبرين! إنا وإن كنا ذوي بأس وقوة، لكن ما سمعناه فتت بدواخلنا كل حصون المنع والرفض، تغلبت الدموع على كل شيء، وآسرنا انسيابها عن حبسها.

بدأ الرجل يقص علينا منذ أن أخلى الصرب وجودهم الرسمي من المؤسسات، وفجأة وجد ابنته تقول له: أبي لم تعد صديقتي الصربية تجيء إلى المدرسة! ورغم قلقه مما سمع إلا أنه أبدى عدم اهتمامه بالأمر كثيرا وأخبر ابنته أنها ربما تكون مريضة أو عند والديها بعض المشاغل، ثم أردف:

-لكن الموقف الذي قصته ابنتي تكرر بشكل ممنهج، حتى اختفى وجود الصرب تماما، رأيت جارنا الصربي وهو حازم أمتعته وفي طريقه للرحيل، ولم يتسنى لي وقتئذ سؤاله إلى أين العزم؟ فقد كنت أتابع المشهد من شرفة منزلي، ثم تكاثرت أسئلة البوسنيين، أين جيراننا الصرب؟ وعلمنا بعدها أنها كانت تعليمات من "سلوبودان"[1] تمهيدا لاندلاع الحرب، ولم يمروقتا طويلا حتى انتقلت الاحتجاجات اعتراضا على انفصال البوسنة من الاتحاد "اليوغسلافي"، إلى الشوارع، ثم نزول الجيش الصربي الذي

1 - رئيس الاتحاد اليوغسلافي.

كان يسيطر على أغلبه القيادات الصربية إلى الميادين، طوقت المدينة بكردون من الدبابات، ودعما لوجستيا برعاية "يوغسلافيا" وبدأ تلفاز وإذاعة الصرب في الحشد المضاد، وإذاعة الأخبار الكاذبة وتلفيق اتهامات خرافية بشعب البوسنة وتصويرهم بالقتلى المردة الذين يضطهدون الشعب الصربي.

أقام ظهره منتصبا، وأخرج من معطفه عمودًا من الدخان متهالك من سوء تخزينه، ثم اقترب من وهج النار الذي نلتف حوله، وأشعل سيجارته، وأخذ نفسا عميقا وأخرجه -النفس- بزفير أكثر عمقا وكأنه يطرد معه أوجاعا أصقلت صدره، ثم أردف وقال:

-أتى الحشد الصربي المضاد بثماره، فتعبأت ألويتهم العسكرية بألوف الصربيين المنتفضين والمتفاعلين مع تلك الأخبار الكاذبة، ودفاعا عن هويتهم الصربية التي انتعلها بوشناق البوسنة!

ثم انحنى برأسه ونكسها قليلا وقال بنبرة مختنقة:-

لا أعلم كيف صدّق إخواننا البوسنيون من الصرب تلك الأكاذيب المغرضة، كنت يوغسلافيا أولا قبل أن أكون بوشناقيا مسلما بوسنيا! لكن أفيون العرق والجنس قاتل، وما إن تجرعته الحلوق حتى أدمنته و أفقدت صاحبه البصيرة والوعي!

كذلك هم أغلب الصرب، فقدوا بصيرتهم بعد أن حشدت نفوسهم "بلجراد"[1] بالكراهية والقومية الملعونة.

مال برأسه أحد إخواني من المجاهدين حديثي القدوم، وقال: لماذا يلعن القومية برغم أننا العرب نقدسها؟

قلت في صوت خافت:- القومية الأوربية تعني التعصب للعرق والطائفة والتطرف الزائد، أما عندنا فهي تعني نفس المفاهيم، لكن حكامنا ساقوها لنا وكأنها ملعقة دواء تشفينا ولا نمرض بعدها!

ثم ابتسمت ساخرا ونظرت لعينيه مباشرة كي أرى انعكاس عبارتي فيهما، فما وجدت إلا السراب.

عدت بعدها أتابع حديث "خالد" وكان هذا الجانب من الحديث هو الأشد ألما، فقال:

-صارذلك المطار"وهويشيرخلفه- هو المخرج الوحيد لنا من المأزق، وفتح الموت لنا بوابة النجاة الأخيرة بشكل ضيق جدا، أصبحت المعونات التي تصل لنا لكي تحمينا من هجمات الحاجة، تصل عن طريقه، حاولنا في البداية أن نحيا حياة طبيعية تحت لعنات الحصار، نذهب إلى أعمالنا

1 - عاصمة صربيا.

في كل صباح، لكن الوضع كان يزداد سوءا، رحل الألوف هربا من شبح الموت الذي أصبح يأكل من تعداد سكان المدينة ويحتل أرضا كننا نطؤها، وتمسك من هم مثلي بتراب الوطن، و آثرنا الموت دفاعا عنها وعن فكرة الـ "لا تقسيم" بدلًا عن الفرار المخزي، فالحرية الحقيقية هي تلك التي تتأتى من جذور الانتماء والطمأنينة والسكينة وليست كما يعتقد البعض في أن ننام ليلنا آمنين مبتسمين، وهي أن نتشبث أكثر بحقوقنا الوطنية وندافع عنها.

أجرم "سلوبودان" أكثر وأكثر، وأشعل فتيل الفتنة، وتلاعب على مفاهيم عرقية قديمة قدم الزمن نفسه، وصنع جسرا من الكراهية بيننا وبين من كانوا يلقون الصباح علينا مبتسمين في مطلع كل نهار! و أفسد "سلوبودان" ما بناه "تيتو"[1] في سنين طوال بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، من تأصيل مفاهيم المواطنة، والإخاء والتعايش جنبا إلى جنب مع من يخالفك العقيدة والجذور! لكنه يحمل لواء "البلقانية"[2] على عاتقه وهذا يكفي.

---

1 - مؤسس الاتحاد الفيدرالي اليوغسلافي بعد الحرب العالمية الثانية، توفي في ١٩٨٠م.

2 - عرق ينتسب إليه سكان البوسنة وشرق أوربا.

أسند يداه في معطفه ثانية وأخرج عمود دخان آخر كان أشد بأسا من سابقه، وأمسك به بين أصابعه وكأنه يحتار إشعاله أو البقاء عليه، خوفا من ألا يجد غيره، فرأيت تلك الحيرة في عينيه بصفتي مدخن تائب، وأعلم أثر فعل النيكوتين على الدماغ البشري وخصوصا لو أوشك على النفاذ.

ظل في حيرته يتلاعب بعمود الدخان ثم أردف:

-إلى ذلك اليوم الذي خسرت فيه حياتي رغم أنني مازلت أتنفس وعلى قيد الحياة، هجمت كتيبة من الصرب متسللة إلى المدينة بتعاون مع "الكروات" الذين كانوا في البارحة يحاربون جنبا إلى جنب معنا ضد بربرية الصرب، لكن المصالح السياسية تتصالح، عقد ساسة "الكروات" مع ساسة "الصرب" اتفاقية سرية لتقسيم البوسنة لصالحهم بشرط إبادة العرق البوشناقي! وأضرموا الوجع في قلوب مئات الأسر المسلمة، وسيق رجالنا إلى الحتف والقتل، وحملت نسائنا بأجنة مشوهة جراء حملات اغتصاب ممنهجة، لتكسير أشواك مقاومتنا، وكنت أنا من هؤلاء.

بدا التوتر واضحا على ملامحه، وارتعشت شفتاه، وكأن برودة الشتاء الذي اعتاده والذي لم يلق له اهتماما منذ قليل قد زاره على حين غفلة، ولمحت بذرة دمعة أبت أن تلتزم بحدود اللاءات، وسقطت سريعة،

واضطربت أحباله الصوتية متأرجحة تارة ومبحوحة تارة أخرى، وغمغم يقول:-

زحف الشر إلى بيتي كجرار يحصد أرضا، يطرح ثمارها يمينا وغثاءها يسارا، وكان الغثاء بالتأكيد أنا ووالدي وأخي الأصغر، وأما ثمارنا كانت أمي وزوجتي وزوجة أخي و ابنتي.

ابنتي خديجة.

قالها وقد انهارت مقاومته فعليا وهذا ما بدا لنا جميعا، همّ أحد المجاهدين، وأعطاه قارورة ماء، وربت على كتفه، بينما ارتفعت نبرات مبحوحة بجواري على اليمين واليسار ببكاء مكتوم.

أمسك القارورة المزلزلة بين أطراف أصابعه، وروى أحبالا صوتية قد جفت بفعل الألم وليس العطش، ثم أثني ساقه تحت فخذه، و اتكئ عليها ومال ناحية اليمين، ثم قال:

-كانت تلك المرة الأخيرة التي رأيتهن فيها، ولم يعلق في ذهني من مشهد الحرب كلها إلا نظرات زوجتي وهي تجر مسجاة على الأرض وصيحات ابنتي وهي تقول:- أبي لا تتركني، لا تتركهم يقتلونا، أبي لا تتركهم يقتلونا.

كان صدري يتمزق حينها وقد كان الغضب يسوقني فأرفص بأقدامي يمينا ويسارا بعدما أوصدوا ذراعي حتى لكمني أحدهم بمؤخرة بندقيته،

ومنها لم أستفق إلا في شاحنة، تسطر فيها الأجساد الغارقة بالدماء لرجال قد سلبت كرامتهم وأسلحتهم وكتفت أجسادهم، كان من يفيق فيهم يفتح عينيه، ثم يغمضها من جديد، وكأنه يقول:- يا ليتني ما استفقت.

كنت أبكي حينها لأنني أعرف مصير نسائي، وكلما أصابتني وخزة في صدري، أعرف أنّ إحداهن الآن يمارس معها فعلة نزع الشرف! وإضافة شرف آخر غير ذلك الذي نعتاده ويكسر ظهور الرجال، ألا وهو شرف التضحية لأجل الوطن.

قال عباراته وهو ينصب ظهره وكأنه يفتخر بما فقدت نساؤه وبما أضفن لتاريخ البوسنة من تضحياتهن.

أكمل حديثه بعدما راح منه الجانب المعتم، وحكى كيف استطاع أن يغافل الصرب ويهرب، وبعدها بأيام وصله العلم من قوات البوسنة بالعثور على جثث ذويه، أبيه وأخيه!

لم أذق الراحة ولا السكينة من يومها، وزاد حلمي في الوصول إلى خيمة القيادة تحديا وإصرارا، وشعرت أنني أملك مفاتيح الحل، وأن التحرير سيجيئ محمولا على أكتافي وببراعتي الحربية في وضع الخطط ورسم المناورات! وأن أقدم هؤلاء المجاهدين الأكثر عزما على الاستشهاد في الصفوف الأمامية من الاشتباك، وأن يظل من هم أمثالي ممن يحملون

الدهاء في عقولهم! أحياء؛ لأن الجماعة الجهادية في حاجة إلى خبراتهم، وبنيت آمالي ورسمت أحلامي المستقبلية في أن أصبح يوما الأمير.

ها قد جاء صاحب الصفة وسط حاشيته، وكانت نبوءة لي بأن حضور "الأمير" في ذلك التوقيت يحمل لي إشارة وهي أنني ذات يوم سأكون مكانه.

كان يتفقدنا ويبث فينا روح الحماسة والمثابرة، وقليل من مكسبات إلهاب المشاعر لن يضر! والوعود المحفوظة بجائزة الاستشهاد وغيرها من وقود الاستبسال.

سمعت تلك العبارات، التي لم تقنعني لأنني أعرف أن حياتي أنفع من مماتي؛ لذا لم أعبأ بها كثيرا، و انتبهت لهذا الجانب القيادي في هيئته وطلته، وبرغم نحافة جسده إلا أن الوقار كان رفيقه واستعماله لبعض العبارات بشكل يحمل التفخيم يجعل كل من يراه ثملًا بمعسول كلامه؛ جمله كانت مرتبة أنيقة ذات بلاغة كجمل صديقي المغمور.

حضوره كان ذا طابع أبوي، ودفء أسري وحفاوة عائلية، رغم صغر عمره، ثم ما لبث أن اصطحب "خالد" معه ورحلا ورحل معهما حاشيته بعدما أصدر التعليمات والأوامر بما يجب فعله وبما لزم اتباعه.

تداخلت منذ ذلك اليوم المقاومة البوسنية مع كتائب المجاهدين، فجنبت إلى أحدهم ممن يتحدثون العربية نتيجة لاحتكاكه بكثير من

العرب في الحرب الأفغانية، ووطدت علاقتي به، فصار رفيق الدرب، وكنت أبيت نية أخرى من تلك الصداقة لما عرفت أنه وعائلته لم يصبهم ذلك الضرر الذي لحق بمئات الأسر البوسنية، كنت أبكي على ليلاي وأريد تحقيق جزءا من أحلامي ولو على حساب المكرونصب الكمائن.

أخلاء الدرب

الشروق في المعسكرات الحربية لم يكن يشبه ذلك الشروق الذي اعتدته! كان الضوء المكسور بظلمة الليل يشق كبد السماء، تُضيء الدنيا من حولي رويدا رويدا، وذلك على مستوى الإبصار العادي محل النظرة، ولكني كنت أرى في كل صباح جانبا معتما، وأتساءل ذلك السؤال: هل ستبقى روحي قيد الأحياء لأرى شروق الغد؟ أم أنها ستصعد حيث خالقها؟ ثم أهم لأتوضأ وأستقبل القبلة مع إخواني المجاهدين، ولا يزال السؤال يحاوطني، مصحوبا بدعوات بأمل البقاء.

الحياة هنا في معسكر الكتيبة أشبه بألعاب النرد التي تعتمد على الحظ أكثر منها المهارة والحرفية والتمرس، كم من مقاتلين عُرفوا ببأسهم وقوتهم ودهائهم، خرجوا في مثل ذلك الشروق وعادوا جثثا بلا أرواح.

الرصاص الطائش والصواريخ الكفيفة والقنابل الملثمة لا يميزون الذكي الشجاع عن غيره من أصحاب القدرات المتواضعة، ومن تلك القاعدة كنت أتفنن في كل صباح أن أطالع وجوه أغلبهم، أتعمق بالنظرة؛ لعلها تكون الأخيرة مني له أو منه إليّ.

تجهيز خطط المواجهة ورسم التحركات وتقسيم الفرق كانت أهم ما يميز صباحات المعسكر، نخرج حاملين أرواحنا على كفوفنا، ومن يعود منّا يقضي ساعات ما قبل نومه في السمر والاستماع لقصص الرفاق وطرائفهم سواء في الماضي أو خلال المواجهات، أو في تنظيف الأسلحة، وللأخيرة مزاج خاص عند البعض، تفتيت السلاح إلى أجزاء، وتنظيفه ثم تجميعه مرة أخرى، هواية ومتعة في الوقت نفسه! وقد احترفتها اقتداء بالشيخ "نايك" ولكني كنت أحدث الرصاصات سائلا إياها: يا ترى هل سيكون مستقرك جدار بعد تصويبة خائبة، أم صدر العدو؟ وإن كان عدوا، كيف يبيت ليلاه، وهو إلى الحتف سيلتقي.

ورغم غضبي من وقاحة الصرب وفجرهم إلا أن إنسانيتي كانت سيدة هذا الموقف في كل مساء تقريبا، أحدث رصاصتي: بأن تكون نبيلة طيبة، وأوصيها: أن تقتل دون أن يتألم قتيلها، ولم أكن أسدي نصائحي من منطلق إنساني خام المصدر، بيد أن شوائب مخاوفي من أن تفعل بي رصاصة صربية في يوم ما ستفعله رصاصتي بهذا القتيل.

وابل الرصاص الذي كان يغطي مواقع الاشتباكات أصبح اعتيادا ألفنا معايشته، وتنقل سيارات الإسعاف التي تقل المواطنين والمجاهدين والمتطوعين والقتلى والجرحى كان أشبه بالطقوس الدينية التي يقدمها الرهبان لخالقهم، لم تعد مشاهد الدماء أو الأطراف المبتورة أو رائحة

احتراق الجلد تفزعني، الغريب بحق هو أن يمر يوم دون سماع صراخ أحد الضحايا، أو استغاثة جريح سقط تحت استمطار الرصاص.

كنت بحاجة إلى صدمة عنيفة تعيد ضبط مشاعري حتى ترجع إلى أصلها، وطبيعتها! تلك الطبيعة البشرية التي تفزع ما إن رأت مشهدا مخالفا لميثاق الإنسانية، ألا وهو الرحمة، دائما ما كنت أدق صدري بقبضة يدي، قائلا في حنق: ألم يئن الوقت لأن تعمل؟ تقعرت تلك المنطقة المسؤولة عن الأحاسيس بداخلي كمن أُبرح جلدا وما عادت شعيراته تفزع لأثر اللطمة. وازدادت موجات الوجع بداخلي لأنني أتألم ولا أملك حتى حق المناجاة أو التعبير عن ألمي، ولو فعلت؛ سيراني الآخرون هشا ضعيفا لا تصلح للحروب ولا تعرف عن صخرية الرجال شيئا. أما المحير ها هنا، هو أنك تجهل مكان الثؤلول المتقرح، مصاب الصداع -مثلا- يمسك رأسه مصدر الألم، هو يعلم المكان، ومن ثم يبحث عن الحل والدواء، لكن آلامي كانت سرابية الزمكانية، لا أقدر على ضبط توقيتات هبوب رياحها ولا أنا بقابض على مواطنها.

ظللت أخمد أصوات الأنين في صدري حتى تعاظمت للدرجة التي كانت تشعرني بأنه تورم فعليا، أتحسّسه متيقنا أنني سأجد في كل مرة أضع فيها كفي عليه مكانا منتفخا.

وبعد أشواط من يُتم المشاركة الذي كنت أتعايشه، رزقني القدر بمن يحيا نفس مأساتي، وقد كشفت تلثمه من همهماته التي كان يخاطر بها دمعه، سمعته يقول: اللهم يا مقلب القلوب، أعِد قلبي على حاله القديم، وارزقني نعيم الحس وجود الشعور.

وضعت كفي على كتفه مستقبلا قبلة المولى وهو في وضعية القرفصاء، وكأن ذلك التعارف بين الكف والكتف كمن قبض صيدا لأمعائه بعد انقطاع التغذية لأيام.

فزعته حطة يدي، وأزعجه ترقبي، وانتفض يناظرني بحركة نصف دائرية لرقبته، ابتسمت له وقلت:

-لست وحدك، لست وحدك من تبحث عن مكان الوجع فلم تجده، هون على نفسك مرارة الفقد! واشكر عليما خبيرا أهدانا لقاء وتجمع الألم على حدود المشاركة.

هدأت ملامحه و ابتسم ابتسامة الباحث الذي وجد ضالته، وصافحني ثم قال: -

تقبل الله منا ومنك يا أخا الإسلام.

تأخينا ثلاثتنا، صرنا لا نظهر إلا بجمعنا، ولا نغيب إلا وكان الغياب يظلل مساحة المثلث بأضلاعه الثلاث.

كنت أنا القطر الذي جمع صديقي البوسني، مع ابن دائرتي وحامل جينات وطنيتي السعودي.

لم تكن تلك المساحة التي تجمعنا شعورية فحسب، لكنها كانت فكرية أيدلوجية نفسية أيضا، لكني لم أزل أكتم بداخلي رهبتي من لقاء الموت، ومازلت أعلن شجاعتي الوهمية، وأخفي مدى ولعي وعشقي للنساء، لكن تلابيب الطباع كانت تهزمني على قارعة التلقائية، يلفظ لساني و اقعا في فخ السذاجة مرات، ثم ما ألبث أن أقهقه مدعيا أن ما قد قيل لا يعتد به إلا في حيز المزحة.

كانت كل سقطاتي اللسانية تلقى ابتسامة من رفقاء الجهاد والمعسكر، إلا سقطة واحدة تشكلت عليها حياتي المستقبلية ككل! كنت أمازح "أميرا" بحضور أبي جعفر، في تلك الأمسية التي أحييناها بطريف القصص وحلو المو اقف، حتى سقطت رغبتي الكامنة بين ضلوعي في أنني آمل الزواج من بوسنية! ووجهت أمنيتي قاذفا إياها في وجه أمير، الذي تسمرت ملامح وجهه قائلا: أصدق ما تقول.

حينها تحيرت أمر إجابتي، هل أتراجع ككل مرة مدعيا مزاحي، أم أؤكد على ما قلت، ربما يساعدني لتحقيق ما أرغب، ولكن صفرية ملامحه وتوسطها لم يساعدني أي الطريق أسلك، أخذت عميق أنفاسي وقلت: نعم فإني وبالحق أقول أتمناها.

غمغم أبو جعفر مستنكرا: وماذا عن عائلتك؟

قلت: أو في التعدد مخالفة؟ أم في عفة النفس حرمانية؟

فهزر رأسه مستنكرا، وقال: - صدقت يا "جامع" تالله ما قصدت تجريم ما أحله الله، لكني كنت أستعطف قلبك، بعدما تعلم أم أولادك بما أنت عازم عليه.

أدرت وجهي حينها عن أبي جعفر، إن ماكينة الشعور التي بدأت في استئناف العمل عنده من جديد قد عملت أكثر من اللازم، وليس لهذا الحد سنشاطر الآخرين في أوجاعهم، وشردت من جمعهم راحلا عبر رفوف الزمن مخترقا بخيالاتي جدار المستقبل، أراها وألمسها كما رسمتها وتمنيتها.

قضيت ليلتي تلك و أنا أبتسم كلما رأيتني معها -عروس الخيال- أداعبها وتدللني، وأمازحها وتر اقصني حتى غلبني النعاس.

كانت تلك الابتسامة مازالت مرتسمة على وجهي، وكأن الليلة عيدا أضفى بسروره على مدينتي، نسيت أهوال الحرب وحجم المأساة ومطاردات الموت، ومواجهات العدو.

العدو الذي أبرم اتفاقية مع الخسة واستهدف أطفالا ونساء لا يملكون من دنياهم سوى ذكريات مهجورة عن الأمن والأمان! صارت أقصى آمالهم أن تغمض جفونهم بدون أن يحلق القصف فوق رؤوسهم.

لم أستطع السيطرة على انفعالاتي لما رأيت طفلا لم يتجاوز العامين، وقد بترت ساقه اليسرى، وكانت تبكيه أمه ويقف أبوه مكبلا عاجزا حتى عن الاحتجاج الهامس، ولأن هدوءه كان يبث إشعاعات ذلك البركان المشتعل في داخله، آثر الصمت، ولعل الصدمة أفقدته حرية الانفعالات، بدى في ساحة المستشفى الميداني وكأن التيه قد أحل به، وقف شابك الأيدي خلف ظهره يدور حول نفسه ويطالع الجرحى المتناثرين حوله، ثم يعود ليناظر ابنه، وأمه تمسك بيده وتقبلها وتهمر منها الدموع متهتة بعبارات متداخلة، بينما يصرخ الطفل وقد تجلطت أحباله، وبين كل صرخة وصرخة، تولد آلاف اللعنات التي تصب غضبها فوق رؤوس الصرب وحاكميهم.

كنت حينها أرافق أخا الجهاد "أبا سلمى" -الذي أصابته رصاصة من قناصي الصرب-بأمر من قائد الكتيبة.

الحياة في المستشفى الميداني مختلفة تماما عن الحياة في أرض المعركة وخطوط الاشتباك، تشعر بعطر يفوح في كل مكان، والأمر لا يعرج إلى التواصيف الروحانية التي تلصق الحق رغما عنه إلى جنبات صاحب

القضية، لكنها الحقيقة التي كنت أسمعها من غيري، أبتسم و أقول في نفسي: إن كثرة إيمان الناس بما هم مؤمنون به، يصور لهم خيالات في جسد الو اقع! ولكني حينما عايشت ذلك الو اقع تذكرت تلك القصص التي تحاكى بها العشرات، عن تلك الرو ائح الزكية التي احتلت مساحات رو ائح المخدر والعقاقير والأدوية حتى تتبدل الر ائحة كلها، تشعر أنك تجالس أزهارا آن موسم تفتحها، ولا ينقصها إلا مشهد الخضاروالصفار الآمن، وإن كثرت الجثث والأجساد الملطخة بالدماء إلا أن ابتسامتهم التي كانت تغلب آلامهم كانت خير البراهين على بستانية تلك الرقعة.

وقفت حينها أطالع مشهد ذلك الرضيع، وتقلقل والديه، و أقلب نظرتي لمن بجواره وجوار جواره، ثم قلت:

إنه الإيمان، ليس الإيمان بالله والدين فحسب، بل أضف إليهما الإيمان بحسن صنيعهم وقضيتهم ومطاردة الظلم وإن كان محتلا، الشجاعة طريح صاحب الحق وإن كان الطرف الأضعف.

الحق يكسب صاحبه ثقة ويقينا و إيمانا بأن: الله الذي لم ينصرنا، حتما سوف ينصرنا.

أخبرني الطبيب بأن أخا الجهاد في لحظاته الأخيرة، وأن الرصاصة اخترقت عنقه، وهو يلفظ أنفاسه وسيودع ذلك العالم الفوضوي.

قالها بحزن كما الحزن الذي أصابني.

نزلت على ركبتي وأمسكت بيد رفيق الإيمان ونظرت له نظرة الوداع، وعلى ما يبدو أن القيادة عرفت أنه سيفارق الحياة، حضر في نفس لحظة الوداع عدد من القادة كأمير أمراء العرب، ونائب أمير المجاهدين ير افقهم الشيخ "طيشة" وعدد من المجاهدين، ليزفوا الشهيد إلى عرس الجنة.

وقفت حينها وصافحتهم وأملت برأسي على أذن "أمير العرب" أخبره بما قاله الطبيب.

هز رأسه بالعلم، ونظر إلى إخو اننا وهز رأسه يمينا ثم يسارا في إشارة منه أن أمر الله قد نفذ.

جلس أحدهم على رأسه يحاول أن يلقنه الشهادة، لكن الأخير قد غاب عن الوعي تماما ولا يعمل فيه إلا حركة رئتيه التي كانت تتشنج وتحجب الأنفاس أحيانا حتى صعدت الروح إلى بارئها.

كبروا وكبر الناس وراءهم، ثم حملنا الجثة للدفن.

مات أخو الجهاد بين يدي، ولم تكن الأولى، ولكنها كانت الأقسى والأقوى، رأيت روحه وهي تخرج من جسده، ور أيت بجواره آلاف المدمرين بفعل الإجرام.

لم أنتبه حينها لوجود القادة والزعماء رغم أنني كنت أحلم فقط بأن يمروا بجانبي. ولكن الموت عظيم بحضوره وسيرته، أنساني أحلامي وأطماعي الدنيوية، وصرت أتدارس الموعظة بإيعاذ أن تهزم أشرارنا أو تكتم بدواخلنا، وأن يظل يفصلنا عن التعري ستر الله.

العصفورة المحيرة

-لقد صنعونا وسيجيئ ذلك اليوم الذي يدمرونا فيه، لو لم نتفهم جيدا أننا في نظرهم كفقاعة الصابون التي تطير لوقت ما لتضفي البهجة للناظرين ثم تنفقع، فإنّا لواهمون.

سمعت تلك العبارة من أبي جعفر، وهو يحدث بها رفيق جهاده في أفغانستان.

أبو جعفر كان يكره الأضواء، ولا يحب التكلف، لا في القول ولا في الفعل، فطالما رأيته ينسحب من مجالسنا لقيام الليل دونما الإذن منّا بأنه سينسحب، لأنّ ذلك الإذن سيعقبه سؤال: إلى أين يا أبا جعفر؟ وحينها سيضطر مرغما إلى أن يصدقنا القول! وفي ذلك الصدق حسب نظرته مجاهرة بالطاعة و"بروبجاندا" لا داعي لها، الرجل وإن قام ليطيع ربه لا يحتاج حشودا كلامية تسبقه للتدليل على ما هو فاعله.

وجوده بيننا لم يكن لغاية وصولية أو حتى انتظارا لعبارات إطرائية، ولم يسع أبدا أن يكون بطلا ولم يعد علينا في يوم ما فعله أو ما ينتوي فعله، دائما كلماته لا تحمل النرجسية وخالية من الأنا، وغايته الحقيقية التي ظهرت ليّ هي الشهادة، والعجيب بحق أنني لمّا جئت أحدثه في يوم عن

مرام الشهادة وجنات الخلد وجوائز الجنة وحور العين، لم يتفاعل مع حديثي ولم ينتفض مهللا، وجدته ساكنا، وكان لسكونه أثر ذو صدمة في نفسي لما قال:

أتعرف يا جامع؟ أخشى أن أقول أنّ كل ذلك لا يهمني، لست بعاصم نفسي في الدنيا كي أفوز بجوائز الآخرة، إنّ جل مبتغاي هو رضا الله، ونصرة الحق أينما كان.

قلت في حنق: يا رجل ألا ترى أنّ ذلك مخالفا لطبيعتنا كبشر؟

ابتسم ابتسامة عذبة ثم قال: تالله ما عرفت ما أقوله حراما أم حلالا؟ لكن هذا ما يجول بخاطري، ولم أعصم نفسي عن خطأ إلا لمرضاة الله، وإن كان ذلك مخالفا للبشر! فإنني و ايم الله ما عرفت هل هذا عيبًا أم ميزة؟

أبو جعفر الشاب الثلاثيني الذي قضى ربع عمره في ساحات القتال، بمعزل عن اللغط والثرثرة، أعطاني اليوم درسا لم ولن أنساه ما حييت.

الأمر لم يتوقف عند تلك النظرة الزاهدة، أو فلسفة التصوف الخالصة لوجه الله، لكنه صوب مرآة عاكسة في اتجاه ناظري، فرأيتني بمشهد قميء غث! ألهث خلف رغبات وأطماع دنيوية، وأجاهر بالتقوى والورع، و أتصايح مزاحما الشجعان على نيل الشهادة وإن أفسحوا ليّ الصف تالله ما فعلت.

كنت أرى الحكمة تتساقط من طرف ثوبه، وكنت أبغضه على ما أوى في جدران عقله من علم وثقافة وإدراك ومعرفة، وكنت على يقين من أنه ذات يوم سيعرض عليه منصبا فيعرض عنه!

كان حنطي البشرية، ذو وجه مستنير مستدير، وتدلى منه لحية كثيفة تخالطت مع شامة سوداء أعلى ثغره، وهو ذو بنية ضئيلة قليلة، لكن تلك البنية لم تؤثر يوما على مهارة اشتباكاته، كان ذا بأس وعصب فلو قبض على عنق أسد ما أفلته إلا وهو يحتضر، وكانت بنيته الجسمانية الرشيقة عونا له في خفة حركاته، يقفز في ثوان من فوق بنايات عالية، ويركض بخفة وسرعة فائقة، ويتملص من يد خصمه ببراعة مذهلة.

كلنا كنا نعلم ذكاءه العسكري، وحكمته الدنيوية، ولا أنكر أنني حينما اقتربت منه أكثر واتخذني خليلا، كنت حريصا على توطيد العلاقة الطيبة، حتى ما إن رُفع قدره، رُفعت معه، وكثيرا ما كنت أشعر أنه يفضل أميرا عليّ، ربما لأنه كشف ستري وفضح عور اتي، أو لأنه يقرأ ما وراء العيون ويتعمق في تحليل النفوس.

لم يتفوه مرة واحدة بأي من تكهناتي تلك، لكني أحلل فروق المعاملة بيني وبين ثالثنا.

كنت أعلم أنه يعارض عشرات القرارات القيادية، وكان يجاهر بذلك صراحة وبكل وضوح أمامي، لكنه كان يفضل الصمت أمام الآخرين لأنه

لو قال ما بخاطره خالف مبدئا انتهجه طوال حياته:"ابتعد عن بؤرة الضوء، تهنأ بصفائك النفسي".

كان يعلم جيدا أنه لو عارض أو شجب، ثم طلب منه تبيان رأيه، لاتخذه الناس حكيما وذاع صيته بينهم.

لم تفلت تكهناته مرة واحدة، وكل اعتراضاته على قررات غرفة التحكم الجهادي كانت تتبين لنا بعد ذلك أنّ أبا جعفر كان محقا.

لم أكن حينها أعلم كل دهاليز وأوكار السياسة، لمّا سمعت تلك العبارة التي قالها -أبوجعفر- لصديق الجهاد الأفغاني، لكني حينها قررت أن أفهم!

الفهم ها هنا ليس كفهم معادلات الكيمياء، أو فك طلاسم مسألة رياضية بالغة التعقيد، ولكنه فهم من نوع آخر، مسؤول عنه أجزاء معينة من العقل، برعاية القبول والتقبل وإبطال مفعول قنابل الصدمات.

آويت إلى مجلسه وجاورته الكتف بالكتف، بعدما انفض الجمع وصرنا اثنتينا بمفردنا، وقلت له مغازلا: لم أر في حكمتك، فلو كان الأمر بيدي لجعلتك أميرا لا تقل في الجاه الفكري عن أمراء بني أمية.

ابتسم وقال في لؤم: قد لحقت نفسك بإلحاق الفكري لنسب الجاه، لكنك بالتأكيد تعلم أنني ما بغيت لا الجاه ولا التعيين.

قلت: وماذا تبغي إذا؟

أخرج السواك من فمه ووضعه في حافظته ثم أغلقها وهو يقول: الستر.

ابتسمت لمّا رأيت فمه انغلق وحافظة سواكه انغلقت وربطتهما بمفهوم الستر في عقله، ولكني أحببت أن أكون ذلك السائل السمج، ليس لاستفزازه المؤدي لضجره، إنما لاستفزازه المؤدي لحكمته، فأردت أن أغوص في أعماقه.

أردفت: ومن هم مثلك يطلبون الستر؟ فإني و ايم الله ما رأيت رجلا أكثر منك حرصا على طاعة الله، وما رأيت أكثر منك تضرعا والتزاما.

-لست نبيا ولست معصوما، أطلب الستر كي لا تنفضح زلاتنا ومساؤنا، عافانا الله و إياك.

-وماذا أيضا مبتغاك؟

قالها ممازحا:

-أتقمصت دور المحقق الصحفي يا أبا حمزة؟

ابتسمت وأردفت

-أزدنا مما أزادك الله.

ضربني ضربة على كتفي، هزتني كلي، وقال

-الحق يا رجل، الحق!

لم تكن هزته إياي ألمت بجسدي فحسب، لكنها حقا سببت إعصارا واهتزازا بداخلي، وأردفت:

-ألهذا المدعو بالحق، قلت ما قلته لمن كان يصحبك منذ قليل

-أسمعتنا؟

-نعم.

-ماذا سمعت بالتحديد؟

-سمعت أننا سنُدمر في ذات يوم، كما صنعنا في ذلك اليوم.

انغلقت ملامحه، وصار أكثر حسما وحزما، ثم قال:

-نحن جزء من اللعبة، ولكن هؤلاء، "وأشار بإصبعه تجاه معسكر القيادة الذي يغربنا" لم يفهموا بعد بأن اللعبة سيجيئ عليها ذلك اليوم الذي تتعطل أجزاؤها، حتى ولوكانت صناعة أمريكية، وأخشى ما أخشاه أن يكون هذا الجزء المعطل هو نحن.

اعتدلت في جلستي وتربعت، وعانقت يميني بيساري، وتحول سمعي إلى إنصاتي، وقلت: أفصح يا رجل.

-اسمع يا أخا الإسلام، المعركة في الأساس بين أقوى قبيلتين، ولأنهما الأقوى، لم يرد أحدهما الإقدام على اختبار قوته أمام الآخر خوفا على هيبته، وسلطانه إن هزم، وخوفا على تاريخه السلمي وشعاراته المزيفة إن انتصر، لذا فإن المواجهة أشبه بالمستحيل، لكن العداوة رابطة في النفوس، والكراهية متعسكرة في العقول، ولاسيما استخدامهم لأجزاء اللعبة وحشدها للمواجهة بعد المؤازرة المستترة والتشجيع والتحميس والتمويل هو عين الصواب، أما من في المواجهة كنا نحن!

-أتقصد حرب أفغانستان؟

-نعم.

-ولماذا أنت الآن جزء من اللعبة؟

ابتسم وقال: لسببين! الأول أنّ حرب البوسنة خارج إطار الحشد والمؤازرة، والثاني: أنني فعلا أريد الشهادة.

-ولكنك كنت جزءا منها في أفغانستان.

-لم أجد من يشرح ليّ، كما أشرح لك الآن، فهمت اللعبة متأخرا، بعد انتهاء الحرب تقريبا.

أفرغت اشتباك أصابعي ببعضهما، وعدت زاحفا على مؤخرتي أبحث عن حائط يحمل ظهري ويسنده.

ثم قلت: الآن فهمت.

قال: لا، تالله إنك ما فهمت.

قلت باندهاش: أهناك الأدهى؟

-نعم، دعني أسألك عن سبب وجودك هنا؟

-الحرب يا أبا جعفر، الحرب وتحرير البوسنة.

-إنك أيضا كنت جزءا من اللعبة، لكن بشكل آخر، إنك كنت الفأر الذي يأمل صاحب البيت أن يخرجه من جحره، فألقى إليك ولغيرك الطُعم حتى تخرجوا جميعا، وإن استقرت في صدرك رصاصات الصرب حسبناك شهيدا وزخرا لنصرة الإسلام، أما لو عدت، حسبناك معتقلا ومعاديا للسلم والأمان.

انتفضت وقلت بصوت متهدج: أتقصد...؟

-نعم هذا ما قصدته، وهذا ليس كل السوء.

-أهناك أكثر؟

-أنت العصفورة الثالثة، الساقطة بحجر واحد، "حجر فتح باب الجهاد" لوأد الانتشار الوهابي الذي يعارض الفكر الليبرالي اللعين.

-وماذا عن العصفورة الأولى والثانية

-أما الثانية هي أن يتضح للعالم أجمع من هم ذخر الإسلام وحاموه، ومن يؤازر ويدافع وبذلك يصبح لهم حق الكفالة والرعاية والزعامة.

-والأولى؟

-هذه سأتركها لك وللحرب ولتعاليم الزمان

ثم هم ناهضا، وقبيل أن ينصرف، لحقته وقلت:

-لا تعطيني أول الخيط وتتركني أغوص لمواصلة مده.

-تلك هي سنن الحياة.

غادر مجلسي وتركني رهين الفكر وقريع التخمين وأسير التكهن، وها هنا زادت أمنياتي واحدة، وكانت الضيف الجديد وهي أن أعرف ما هي العصفورة الأولى؟

وأما الأولى، قد ألقاها صراحة في وجهي أمير في ذلك اليوم قائلا: إن كنت حقا تريد الزواج من بوسنية، فإن نساء البوسنة المهزومين نفسيا وجسديا يحتجن لطبيب، قبل أن يكون زوجا، إن كنت قادرا على أن

تمارس مهنة التطبيب لجراح تنغر في العقل والقلب إذا حل طيف الذكرى، فإني مساعدك ومشجعك.

قلت حينها بكل حب وفخر: إني فاعل بإذن الله، ومنذ ذلك اليوم و أنا أنتظر خبر أمير، لكي ألقى عروسي، وأكمل شق أسرتي البوسنية بعقد زواج سيزيح عن جسدي أوجاع ليالي متكتلة.

لم يتأخر وعد صديقي، وسرعان ما قدمني لعائلته وتحديدا لفرع أولاد وبنات عمومته، وكان لقاؤنا الأول والذي لم ينس ما حييت.

قدموا ترحابهم في أوان الكرم، وكان استقبالهم مغلفا بحسن الضيافة، وجاهروا بابتساماتهم، رغم ضيق الحال وقلة المورد، وأضرمنا مواثيق العزم بأن نستمر في مجلسنا، حتى مع ارتفاع صوت صافرة الإنذار.

كنت أرتعد حينها، شعرت أنّ الحظ سيحفل بيّ باحتفالية خاصة، و أنه أجل يوم موعدي لحين حصولي ووصولي لمبتغاي وأمنيتي.

كان عندي يقين بأنّ هناك صاروخا سيحلق فوق تلك البناية الضعيفة، وأحل ضيفا أنا وعروسي التي لم أدخل بها في جنة الخلد إن شاء الله.

وإن المشيئة الأخيرة التي أفزعتها في نفسي "حسن النوايا"، كم ستصبح مصيبة عظمى ألا أنال ما أريده في دنياي وفي الأخير أنزلق لجهنم ولعياذ بالله، سارعت بتجديد النية، وأزحت ساتر الأفكار السوداوية التي تزاحم

سعادتي، وانخرطت مع ابتسامتهم، وكانت هي -ابتسامتهم- الشيء الوحيد الذي فهمته، كان أمير يترجم عبارة واحدة من بين عشرات العبارات، لكني كنت خفيف الظل، أضحك ما إن ضحكوا، وأصمت ما إن صمتوا، وأتظاهر بالاستماع ما إن تحدثوا، حتى طلت عيون المها، على المجلس، لحظتئذ نسيت الحرب وأهوالها، وغربت أفكاري السوداوية وانزاحت جانبا، وسخرت كل حواسي لمعانقة تلك اللحظة وأرشفتها، وبدأت نظراتي تتدحرج في تلك المساحة الفاصلة بيني وبينها كحبات الرذاذ التي تتطاير في إشراقة صبح ليوم شتوي ندي، وفي لحظة انفصلت أنا وعيناي وحواسي عن كل الجمع، ورأيت الشموع تظلل حوافنا، ورأيتني أجالسها منفردين في خلسة من الزمن! راقصت غزلي المختنق في حلقي كرقصة صوفي نسي العالم وسبحت روحه في ملكوت اللاحياة.

ملامح أوربية متفجرة، وجهها كقلب اللؤلؤ، شفاف اقترب للحمرة، وعيناها بهما حور أرداني ثملا أتعطش النظرة فتزيد سكرتي، وأتمنى عدم الاستفاقة! وشفتيها تغنجتا بنعومة لا تستشعرها من اللمسة، يكفيك النظرة! جسد تنتظم لانتظام تفاصيله أجراس الكنائس مقروعة بنفس جزيئات اللحظة، خصرها ينادي كفي بأن حاوطاني، إنّ القرب مشتاق.

كلها كثمرة الخوخ، مغلفة بطبقة من الشمواه، وحشوها حلو المزازة، يا آهات صدري اسكني، فإني أدمنت مجلسي معها.

لم يزل الحديث متناقلا من لسان إلى آخر، و أنا على حالتي، أزيغ النظرة ثم أعود استر اقها خلسة، ثم تتحول الخلسة إلى تفحص بدقة، حتى داهمنا الوقت، أذنت من أمير الرحيل وما في نيتي أن أرحل! ولكن العرف والتقليد لا يسمح، وكانت أول أسئلتي: متى يا أمير الزفاف؟

ابتسم وقال: يتبقى لنا أمران.

قلت في عجل متلهفًا: ما هما؟

-الأول: أن تو افق هي، والثاني: أن نعلمها العربية حتى تستطيعا التفاهم.

-الأول: ومعك حق وإن شاء المولى لن يخيب رجائي، والثاني لا حاجة لنا فيه، يكفينا الله بلغة الإشارة، و إني لمعلمها بإذن الله.

ضحك أكثرو أكثرثم وصلنا إلى المعسكر، تركني وراح، ورحت أنا في رحلة خيالية لم أكن أحلم بأجمل منها لأنها على مشرفة من الو اقع، الو اقع القريب جدا.

ذلك الو اقع الذي حرمني من أمير، وحرمه الدنيا، وحرمه استكمال فرحته برفيقه و ابنة عمه.

كان في عودته على موعد مع الموت، دون أن يخبرني، لم يستمتع جسدي من أثر الراحة ولم ينعم خيالي بالإبحار في ذلك العالم الذي صنعته، حتى

جاءني أبو جعفر فزعا، يصرخ فيّ ويقول: لقد راح أمير، راح إلى مثواه، راح وتركني هنا في ذلك العالم الدنيء.

دناءة على دناءة، لم أفكر لحظتها في رحيل أمير بقدر تفكيري في ضياع العروس وتوقف الزيجة.

سوءاتي

أنا أعرف سوءاتي جيدا ولكني أفشل في تقويمها في كل مرة فأحتقر فيها نفسي، أعاهد الله على الإصلاح والتهذيب، ولكني أعود ثانية لطريق الاعوجاج بعدما تغازلني رغباتي وشهواتي ومطامعي!

رحيل أميركان علامة فارقة في حياتي كلها، بمجرد أن أتذكر تلك اللحظة التي حلّ عليّ فيها الخبر كرجال البحث الجنائي، بدون إذن أو سابق إنذار، ثم يغيب الوجع لا مباليا وأذهب للبحث عن مستقبل عروس لم أرها إلا مرة واحدة، حتى ألعن نفسي آلاف المرات.

كلما صافحت دموع أبي جعفر الصادقة، وثورتي وانفعالاتي المزعومة بالزيف والكذب، كلما احتقرتني واحتقرت سلوكي الملتوي.

صرت أضرب صدري عشرات المرات موبخا إياه: ألا تعمل أنت؟ ومتى سوف تفعل؟

ظللت هكذا بحالتي أتدهور يوما بعد يوم، أتغيب عن ساحات القتال متحججا بأمراض قد زارتني، وبنفسية آسفة حزينة على فراق خليلي، بيد أن أبا جعفر لم يفعل، وراح يبحث هو بنفسه عن الموت، يهاجمه ويطارده، لا يهرب منه!

الأيام التي مرت عليّ والتوبيخ وجلد الذات، صنعوا بداخلي المفارقة، النفس الأمارة بالسوء تروضها التوبة غير الصادقة، وإن كانت كذلك - غير صادقة- إلا أنها معبر وخطوة مهمة للتوبة النصوح! ولهذا كانت توباتي السابقة كلها تختلف عن تلك القادمة بطريقها محتضنة مستقبلي.

جددتها وجددت معها النية ولعنت الخوف المستعصم في ضلوع صدري، وعزمت الإقدام على أمنياتي السابقة بالتنفيذ، وأضفت إليهم حلم الشهادة، والاستعداد للموت.

فارقت رفيقي وصديقي، ذلك الكتاب المغمور، طالعته اليوم بعد عدد جم من الخبرات التي اكتسبتها من ساحات القتال ومن أبي جعفر، ومن أمير، ومن المستشفى الميداني، ومن صوت المذياع، ومن الجليد والبرد القارس، ومن أجزاء البندقية التي انتميت إليها، ومن المؤامرات والخدع السياسية، فأثقلت صدري بهم جميعا ثم بدأت أقرأ ما في الكتاب بنية جديدة هي أيضا، كنيتي في تجديد العزم والثقة في نفسي، وتوبتي الخالصة لرضى الرحمن.

وجدته يقول: إن التجربة بريد السلوك، وإن التعامل وقود الخبرة، وإن الرجل الحق هو من يفشل ثم ينجح وليس العكس.

إشارة جديدة يرسلها إلي بتلك الطاقة الماور ائية، فاستبشرت بما قرأت، ثم أغمضت عيني وقلت لنفسي: الآن دقت ساعة الحزن! ووجب عليّ أن أعوض ما فاتني من حزن على رحيل رفيقي "أمير".

-الآن أنا حزين.

لم أكن أمزح حينها، ولا أغالط نفسي بحزن وهمي، لكني بالفعل كنت بحاجة إلى أن أحرك ماكينات الإحساس المتعطلة بداخلي، وما كانت لتعمل إلا بتلك الطريقة! أن استحضر عظمة الموقف و أتعايش بداخله.

رحلت في عالم مواز بضعة أسابيع و أنا أعتزل الناس، حتى أبا جعفر اعتزلته، واستوعب هو حالتي، وساعده أيضا ما فعلته على الاعتزال والزهد أكثر فأكثر، وجدها فرصة للمضي في التنفيذ.

ونفذنا كلانا ونفذ الصرب فينا قصفا كان داميا، وأحسبه الأخطر منذ اندلاع الحرب، لكن رجال المقاومة البوسنية ابتسموا لما قلت تلك العبارة، و اتفقوا أن هذا القصف لا يقارن ببدايات الحرب، وأن متوسط الخسائر بعكس ما سبقه.

وقفت حينها أستنكر تلك المقارنات والإحصائيات التقريبية، أوصل بنا الحال لأن نرسم شدة هجومهم علينا، لا عن بسالتنا وقوة دفاعنا؟

الموقف الدولي في حالة صمت غريب، الشجب والتنديد والاستنكار، لم يوقفوا الصرب عن تنفيذ مجازرهم، واستجلبت حديث أبي جعفر عن نظريته في حرب البوسنة، و أيقنت أنه كان محقا بأن تلك الحرب خارج تقسيمة الكعكة ولا تشغل بال الكبار، لكن ما يشغلهم هو حرب أفغانستان مثلا لأهمية موقعها الاستراتيجي بين إيران ودول الخليج وباكستان وحدودها مع دول الاتحاد "السوفيتي" أيام كان اتحادا، ويشغلهم صدام بعراقه؛ لأنه يزعزع أمن حلفائهم في المنطقة العربية، وأن نجمه قد بزغ وصار اسمه يبث الرعب في قلوب المستمعين! هذا ما يشغل الكبار!

أما البوسنة وسكانها وبوشناقها وتقسيمها فلا يهم! يموت من يموت، وحينما يتفرغ من وقتنا المزيد حينها سوف نلتفت لصراخهم.

بدأت الآن أوازن بين شقي الجهاد، فصارت خبراتي في الجانب السياسي عندي تتزايد مع الجانب العسكري، وهكذا حالي أصبحت مؤهلا لأن أحقق أمنيتي الثانية وحلمي في القيادة والزعامة، والفضل يعود لأبي جعفر الذي جالسني وأخبرني بخبايا الأمور، وأعطاني مفتاح التفحص والتمحيص والنظر لما هو خلف الحدث، لكواليس الصناعة! إن فيها ما فيها من فك لطلاسم المواقف السياسية، ولم أكن وحدي من برع في التحليلات واستيعاب الألعاب الكبرى، والتكهن بذلك السؤال الموجع

بإجابته، حيث: لماذا يدير الكبار ظهورهم لنا، ويصمون آذانهم لصراخ شعب البوسنة؟

الحروب والثورات دائما ما تخلق عند شعوبها روح المتابعة والمراقبة للأحداث لأنهم جزءا منها، والمتابعة توجد الانقسامات بين الصف الواحد، والانقسامات تعزز من توطيد الحجة والبرهان للدفاع عن الأيدلوجية التي ينتمي إليها كل فصيل، ومن ثم زيادة الإدراكية بالتثقيف والتأمل فيما وراء الأحداث.

صار الشعب البوسني أكثر وعيا وثقافة وهو المتحدث بأكثر من فكر، منهم من يرى أن الدخول في الحرب أصلا كان قرارا غير سليم، ومنهم من يؤيد الحرب مهما كانت الخسائر، ويرى أن لكل مبدأ خطوطه الدفاعية التي لابد أن تتكبد الخسائر في الأرواح، وأن تلك الخسائر هي المعيار الحق للوطنية، ومنهم من كان يرى أن التحالف مع الكروات، سوف يجعل من الصرب جرذانا يتطايرون أمام الوحدة، ومنهم من كان يرى أن التقسيم ومشروعه سوف يخلق مزيدا من التقرحات في جسد الوطن، وسيكون بداية الشرارة التي لم ولن تنقطع ألهبتها.

حاربوا لعدم التقسيم، وضحوا بأرواحهم وأموالهم وأمنهم وأمانهم واستقرارهم من أجل ألا تنقسم البوسنة إلى دويلات مفككة حسب العرق والدين، وأن الشعب البوسني، من حقه أن يتعايش بمبدأ

المواطنة مهما اختلفت الفصائل المكونة له والتي تحمل الجنسية البوسناوية، على عكس أيدلوجية الصرب بإعلامهم برئيسهم القومي المتعصب الذي كان يرى أن انفصال البوسنة عن عصبة الاتحاد "اليوغسلافي الفيدرالي"، فيه خطر على سيطرة العرق البوشناقي ومن ثم مجريات الحكم، باعتبارهم الأكثرية المنتشرة.

لهذا إن دخول الحرب، لابد ألا ينتهي بخيار التقسيم، وإلا لما من الأساس دخلنا وضحينا؟

الأصوات الأوربية كانت تتزايد صوتا بعد الآخر، بأن حقن الدماء سيتأتى من إعلان قبول تقسيم البوسنة، على حين أن أصوات العالم الإسلامي كانت تتزايد واحدة بعد الأخرى للاعتراف بدولة البوسنة ككيان رسمي بين مؤسسات المجتمع الدولي.

الصوت الجهادي كله كان يتفق على مبدأ واحد أن الأرض من حق "البوشناق" وأن الحرب ليست اختيارية، بل هو الاختيار الإجباري للثأر ممن قتل واغتصب وشرد!

وكنت أنا أكثر هؤلاء المتعصبين، ليس للهدف العام فحسب والذي يخص كل شعب البوسنة، و إنما أيضا للثأر من هؤلاء الذين اعتدوا على حرمة أهل بيتي باعتبار ما سوف يكون.

أريد أن أصبح بطلا في عيني "بدور" وأريد أن أجعل أعلامي ترفرف فوق خصرها، وتنكيس أعلام العدوان الغاشم المحتل الغاصب النجس!

هكذا كنت أرى وكنت أصرح لها، بعدما هدأت نيرانهم على فقد أمير، أقسمت لها أنني لثائر منهم على من دنس الشرف ومن وجع القلب لفراق عزيز.

لا أستطيع أن أنكر أنني أحببتها، وفي كل زيارة لها كنت أزداد تعلقا بها أكثر من ذي قبل، وكنا اثتنينا نجاهد في استيعاب بعضنا البعض من الابتسامة أو القليل من الإنجليزية أو قليل القليل من البوسنية التي تعلمتها خلال مكوثي على أرضها، أو محاولاتها في حفظ بعض الكلمات من العربية.

كنا نجاهد لكي نصل إلى بعضنا البعض، لكن النظرات التي في أحشائها سهام العشق كانت كفيلة بأن تخترق جداراتنا، وأن تزيل حدود الثقافات واللغات بأكملها، وكيف لا وقد رق لها قلبي، وأسر بها فؤادي؟

كانت محاولاتنا المثابرة في التواصل مدعومة بطرف ثالث وهي "ديالا" التي كانت تر افقنا في نصف الزيارة تقريبا لتترجم لي ولها ما نود قوله، فبصفتها دارسة للعربية كانت تجيد تلك المحادثة ولكن بشوائب التكسير.

كل هذا لا يهم، بقدر أنني كنت أتر اقص على أوتار الحب بعد رؤيتها، أعد الليالي لموعد المقابلة التالية!

سمعت في ذات يوم استنكار أحد الجهاديين، للذي أنا عازم على فعله، بقوله: أو هذا هو الوقت المناسب لما تنوي فعله؟ وكان يقصد خطة زواجي، ثم استنكر أكثر موقف أسرة أمير وبدور، من مو افقتهم على الزيجة من الأساس.

تفضل أبو جعفر بالرد نيابة عني، وقال في حزم:

البوسنيين أنفسهم يتعايشون مع الأزمة، انظر في المخابئ الأرضية ستجدها في كل مساء تعج بسهراتهم الغنائية الر اقصة، هم يحاولون أن يخرجوا أنفسهم من عنق الزجاجة التي كادت أن تخنق أرواحهم!

ثم برر موقفي بصوت واضح التفاصيل:

إن ما يفعله أبو حمزة لهو نهج سليم جدا، يعف نفسه بزيجة قد ينال منها ثوابا صائبا فحواه: ويكفي أنه سيعالج آثارا نفسية مميتة قد تخلفت في نفس عروسه.

وكل ما علينا جميعا هو مؤازرته ومساندته، لا أن نحبط مسعاه.

حينها صمت المهاجم وكممت أفواه الحاضرين، وتسمرت أكثر جذور خطو اتي لما أنا عازم فعله.

الوجه النبيل للمأساة

ورغم شراسة وشرور الحروب وفواجعها إلا أنها تخلف نبلا وفضيلة لو حاولنا الوصول إليهما بكافة الطرق في الأيام العادية ما وصلنا للذي أوصلتنا إليه الحروب بدون أي مجهود.

من كان يتخيل أن ضمير اللصوص والقتلى والمجرمين سيستيقظ، ويتحول إجرامهم لقوى وطنية تصطف في مواجهة العدو!

إنه الوجه النبيل للمأساة، إنها فضيلة الحروب، أثمرت حرب البوسنة بموروثٍ طيب أكثر نفعا من ضرر حتمي!

استخلصت تلك النتيجة لما انضم لصفوف الاشتباك المشتركة بين المجاهدين والمقاومة الشعبية نفر من البوسنة والهرسك، قال قائدهم هامسا في أذن الشيخ "طيشة": هؤلاء هم من كانوا بالأمس يهددون أمن البوسنيين، عرف عنهم الضلال والرذيلة، واشتهروا بالشغب وتكدير الأمن وسرقة المواطنين.

كانوا خمسة ملامحهم تشيح بالإجرام، رغم تلك الابتسامة النبيلة التي ارتسمت على وجوههم جراء ما سوف يفعلونه تحت لواء الوطنية!

شعرت شعورهم، وتعمقت في نفوسهم، كيف يتحول المرء منا فجأة من اليسار إلى اليمين بعدما كان منبوذا مكروها مذموما ينفض الناس من حوله؟ يصبح اليوم مُؤديًا عملا يلقى ترحاب الناس، بل وتهليلهم ومحبتهم!

صدمة شعورية ربما تودي بقطع أحبال التلقي، من أثر السعادة العارمة التي تكسو أجسادهم، وتوقف كامل لمحركات الشر التي لم تعلن الراحة يوما، وتوجه كل الغضب لصدور الأعداء!

إنه "الوجه السعيد للمأساة"، رغم أسف تلك الشعوب التي تحل بها كارثة الحروب، لكن بلا شك يتخلل ذلك الأسف شيئًا ما قد يكون مُبهجًا، لتضاء العتمة، ويحل الضوء محل الظلام ليلاقي حتفه، وستتحرك أيضًا تلك العضلة الضميرية المُختبئة تحت أهوال الشر لتتحرر من قيود السوء، وتعلن العصيان، وتجتمع الآلام مُصطفة مع آلام الوطن، ويتحول خبثهم ولؤمهم إلا عجينة خير تصب في مصلحة الجميع!

لم ينتهِ الحال فقط عند موقف التحام المجرمين لصفوف الجهاد فحسب، بل استحضرت قصص البوشناق البوسنيين وهم يعددون أسماء من مواطني صرب البوسنة الذين رفضوا الانصياع لأوامر قياداتهم والانقلاب على جيرانهم، ورفضوا تقسيم البوسنة، وقبلوا

بالتعايش جنبا إلى جنب مع جار الوطنية وأخا الأرض والعرق "البلقاني" حتى قص أحدهم قصة بيت مكون من ثلاثة طوابق، مملوكا لعجوز يهودي يقطن الطابق الثالث منه، والثاني لصربي بوسني، والأول لبشناقي بوسني، وحكى أنهم كانوا يتشاركون الطعام يوم بعد يوم في ضيافة أحدهم بالتوالي للتغلب على قلة المؤن والمرور من الأزمة.

هكذا تصنع فينا الحروب، لا تكتمل الدائرة بظلها القبيح، فيبقى مكان غير مظلل يومض بنذير السطوع الذي قد يغلب الظلمة، وينشر الخير رغما عن أنوف الحاقدين.

حتى أنا كنت هذا الجزء النبيل الذي خلفته الحروب، صرت أكثر إدراكا وتفلسفت نظرتي لكل شيء.

لن أنسى فضل حرب البوسنة في إعادة هيكلة تفكيري، وبث روح التأمل وإعدام التهور الذي كان يتملكني، وزيادة معدل ثباتي والتحكم في انفعالاتي للدرجة التي جعلتني، أتلقى خبرا قاسيا على نفسي بطمأنينة غير معتادة! وبثقة ويقين في السلامة رغم أن الأمر في ظاهره لا سلامة فيه.

لما انتويت أن أتصل بزوجتي "خلود" وأحدث أبنائي الثلاثة، وعرفت منها أن رجال الأمن العام، قد داهموا منزلي، بحثا عني، ولما تقصى أهلي عن سبب المداهمة عرفوا حينها أنني مطلوب على ذمة قضية سياسية تفيد بتورطي ضمن جماعة إرهابية!

قلت حينها لزوجتي: من؟ أنا؟ إرهابية؟ أمن عام؟

تداخلت عباراتي ولم أطأ لأكمل محادثتي وأغلقت سماعة الهاتف، وكستني الحيرة! ثم ابتسمت وقلت الحمد لله.

صدقت تخمينات أبي جعفر، وصدقت رؤيته، و إني عازم أن أصل إلى العصفور الأول، كيما تكتمل الرؤية في عقلي و أفهم حيثيات الأمور.

عرفت وقتئذ أن زيارتي لبلادي محرمة، و أنه وجب عليّ أن أجهز أولادي لزيارتي هنا في البوسنة أو ربما أنتقل للعيش في أي دولة أوربية أخرى، بعد الحرب.

آآآه من الحرب، ومتى ستنتهي الحرب!

شعرت بأن القيد قد التف حول رقبتي، فقد قفز الحنين لأولادي فجأة لما عرفت أنني محروم وممنوع من رؤيتهم بفعل قو انين الأنظمة.

ولأجل تلك الخبرو أثرها في نفسي، أسرعت في خطوات إتمام زيجتي من بدور، وعزمت أن المكالمة القادمة سأصارح خلود بأمرزواجي؛ علني أصل معها لتسوية ودية في الانتقال والمعيشة معي ولم شمل عائلتي تحت سماء بلد واحد، كذلك الشمل الذي يأمله البوسنيون ويحاربون لأجله ولأجل عدم الانفصال.

انفصلت عن كتيبتي ثلاثة أيام بلياليهم لأنعم بملذات الزواج بأمر من القائد ومباركة من الأمير، وتهليل الإخوان الذين لمعت عيونهم لحذو حذوي وفعل فعلتي.

كانت أياما من الجنة أحياها على أرض ارتوت بدماء زكية لأرواح نقية، كنت و إياها نتبادل لهيب العشق ولهيب القصف يحلق فوق بناياتنا، وصوت رصاص القناصة لم يتوقف! ولكننا كنا نريد انتشاء السعادة وتذوق رشفاتها.

أيقنت حينها أن السعادة قرار، فلو تجمع العالم بأكمله ونصبوا أعيادا واصطفوا ملايينا لإسعادي و أنا غير مقر بذلك ما سعدت، وإن أقررت خوض غمارها وسط زخم الحرب ومئات الجثث لفعلت.

وها نحن فعلناها، لم تؤثر ويلات الحروب على قرارنا، ولم نعبأ بانقطاع الكهرباء ولا نقص المؤن ولا شحيح الماء ولا برودة الجو.

اقتسمنا الخبز، و أكملنا عشاءنا بوجبات الحب، وتشاركنا في كوب الماء، وارتوت حلوقنا بعذب القبلات، وحل الدفء على أجسادنا من لهيب الشوق وحرارة اللمسة، وتغطينا بذلك الوهج الصغير المنبعث من ضوء الشموع.

الآن أنا حقا سعيد!

تعاهدنا على الحب، و أقسمنا على الوفاء، وتوضأنا بالاهتمام وصلينا صلاة مودع للهموم والأحزان.

كنت أرابط خمسة أيام في معسكرات الاشتباك الخاصة بكتيبتنا، وأزورها مبيتا في ليلتين فقط، لم تتضجر أو تغضب، لأنها تعلم أن ما أفعله لصالح تحرير وطنها.

كانت تراني الفارس الهمام الذي ينقض على الموت فيذعره، ولا يهاب بأس الرجال! بل كانت تراني كل الرجال، ولكني كعادتي كنت أشعر أن هناك شيئا ما ينقصني، لم أعلم ما هو، لكن تلك الغصة في قلبي مازلت تؤرق محياي!

لم أستسلم لتعكير المزاج و انتعلت كل ما هو مزعج وسخيف، وسرعان ما كنت أطارد شبح ذلك الشعور، وأعود لأرتشف حلاوة العشق في محراب حنانها.

ها أنا قد حققت أمنيتي الأولى، وأصبحت أذكر نفسي بالثانية والثالثة.

حلم الزعامة، وحلم التحرير والنصر، وكلاهما في نظري مرتبط بالآخر، وكنت أظن أن العصفورة الأولى يرتبط ميعاد معرفتها بأحد الأمنيتين، ولا أعلم من أين جئت بتلك النبوءة، لكنها كانت الأكثر سيطرة عليّ، حتى إنني ألححت مرات ومرات على أبي جعفر أن يكشف سر اللغز الذي رماني في بئره، لكنه كان يرفض، بل وكان مصرا على أنني لابد أن أصل له

بالتجربة وتبيان المو اقف ومفارقاتها، و انتهى نقاشنا بانضمام نفر من المجاهدين إلى مجلسنا، وعلى رأسهم "شيخي" وقدوتي وقائدي السابق "نايك" أعزه الله ورفع شأنه.

ولكن طلّته كانت منقوصة ابتسامتها ودعابته التي كان دوما ما يلاطفنا بها!

ظل يستمع إلى حديث المجاهدين، وعن غضبهم من قلة الإمدادات وغجرية بعض القرارات سواء في مركز القيادة أو في الحكومة البوسنية نفسها.

رفع أذان الحوار الشيخ "طيشة" بعبارته التي ترحم فيها على حال كرامتنا، حيث رجع بالذاكرة إلى حيث حادثة توقيف واحتجاز الرئيس علي عزت بيجوفيتش، وقال إن موقفا كهذا هز هيبتنا وهيبة البوشناق أمام العالم وإن كان قد انتهى بفك أسره، ولكن الجرأة في الإقدام على الفعل كانت بداية لدرج التنازلات الذي مازلنا نهبطه درجة بعد درجة بدون أن ننتبه أننا في طريقنا للهاوية.

أثنى الحضور على ما قاله الشيخ "طيشة" ولكنني رأيت في عين رفيقي أبي جعفر نظرة ترقب قاربت أن تعبر لحدود الاستنكار.

لم أكن أعلم حينها سبب التجمع ولا أساسه، ولا النتائج المنتظرة منه!

ولم كتيبتنا بالتحديد؟

وهل هو أمر انشقاقي خصتنا به القيادة؟ أم أنه من فعل رأس جهادي الصف الثاني بدون علم الصف الأول؟ أم أنه يعد خطة ممنهجة تمركل الكتائب الجهادية بترتيب وتنسيق مع القيادة العامة؟

تزاحمت الأسئلة في رأسي وخصوصا أن لغة الحديث كانت خطابية ومنظمة! فبطي ذلك الأمر شيئا لم تتضح معالمه إلى الآن!

أردف قائلا مسلما رايات الحديث للشيخ "نايك" بسؤاله المباشر له: أو ليس ما أقوله و اقعيا يا شيخ "نايك"؟

استلهم نايك من عمق صدره نفسا طويلا وأجابه:

نعم يا شيخ "طيشة"، وأحب أن أنوه أننا لن نكون بعد اليوم أداة صفع على وجه أحد، مدفوعين ومأجورين من خصم أو عدو.

فغايتنا هي تحرير الأرض الواقع عليها الظلم، ورفع يد الفجر عن المسلمين، ونصرتهم ومؤازرتهم.

رد أحد المجاهدين القدامى العائدين من أفغانستان بحنق: أتقصد يا شيخ أننا لن نخوض معارك بالوكالة ثانية؟

لحقه الشيخ "طيشة": ومتى خضناها أولا؟

رد المجاهد مستنكرا: لقد وقعنا في فخ الحرب الباردة وصفعنا "السوفييت" لصالح الأمريكان، الأمريكان الذين أداروا ظهرهم لنا، وراحوا يمزقوا في أراضينا ويبنوا مصدات لفصل اشتباكات العرب وممارسة دور الحكيم الكبير الذي يهدف لمصلحة العائلة العربية.

انظر هناك "ثم أشار تجاه الشرق" حيث الحرب الثانية للخليج، والدمار الذي أحل ببلدين عربيتين، أو تتخيل أن المحكم الحكيم -أمريكا- لم تكن هي صانعة الفجوة بينهما من الأساس؟

لقد استخدمونا كما استخدموهما، وسيأتي ذلك اليوم الذي سينقلبون علينا فيه.

تزاحمت تجاعيد وجه الشيخ "طيشة"، من جرأة لم يكن يتوقعها، وراح يلطف الأجواء للتقليل من شدة الحوار، ثم ما لبثوا دقائق حتى انصرفوا و انفضوا.

ولم أر ذلك الجهادي مرة ثانية!

المعارض في نظرنا يشق جموع الصف، والمنشق مرتد، والمخالف ضلّ وندعو له بالهداية وحسن البصر والبصيرة!

قومية أسرة

وضعت بدور مولودنا الأول، وكانت ليلة قاسية تحت لعنات الحصار، انتهت في نظري بصرخة خروجها من رحم أمها لتشق طريقها في الدنيا.

"سر اييفو" ابنتي الأولى من بدور، والوحيدة على ثلاثة ذكور غير أشقاء.

الآن قد آن الأوان بأن أخبر خلود بأن لأبنائها أختا وأدعوها للم الشمل.

حدثتها هاتفيا في مكالمة لم تدم دقائق، أعلنت هي انتهائها فور إخبارها بالأمر.

ثار غضبها وأعلنت ثورتها، وتمردها! قاسمة متوعدة بأنها لن تصبح تحت لواء عهدي بعد اليوم، عازمة على الطلاق، مبررة أن آخر الصبر علقم، وها هي تحيا العلقم وتتذوقه بكل مرارته.

عرفت حجم النار التي أمسكت بها، وعذرتها وهدأت من حزني بدور معللة موقفها بالغيرة، ممنّية إياي بهدوء قادم.

أزاحت القلق عن صدري ولاطفتني وداعبنا ابنتنا وضحكنا ونسيت آلام رصاص خلود الذي لم يختلف عن رصاص الصرب القاتل.

مسمومة هي نيران الغيرة التي لا تجعل المرأة تقنع بأن الرجل من حقه أن يملك في عصمته أكثرمن امرأة، و أني عازم على الجمع بينهما تحت سقف واحد! مهما اختلفت ثقافاتهن ومناهجهن الحياتية.

أكره الانقسامات والتشتت، وأعشق التكاتف والتجمع والوحدة والقومية، المهم أنها لا تكون كقومية "سلوبودان" مرجعها تعصبي وعرقي، ورغم إجرامه إلا أنني توقفت عند ذلك الرجل في مراحل كثيرة، ليس اقتداء بشره وفجره وطغيانه، إنما لملامسة تلك الحنكة السياسية التي يديربها مجريات الأمور وقدرته على التحكم في الملايين من وراء مربع صغير! مربع التلفاز.

أردت أن أتعلم من قراراته وتاريخه كيفية قبض السيطرة، وكيفية كسب تعاطف الملايين، ومغزى العبارات النارية التي يلقيها على مسامع الناس، فيلتهبوا اشتعالا لم في كلماته من زخم يدغدغ عواطفهم العرقية والوطنية.

تذكرت عندما قص علينا الشيخ "طيشة" أن لسلوبودان عبارة تطرفية وتلك العبارة كانت الإشارة الأولى في اندلاع الحرائق الطائفية وسببا رئيسا في تربية ذلك الجنين المشوه في نفوس "اليوغسلافيين"، ريثما قال "لا أحد سيهزمكم بعد اليوم".

فتيل الفتنة الأول قد انطلق حينها بعد معركة شرسة مع الألبان، وقد غضب لتعديهم -الألبان- على عشيرته الصربية، قالها مستنكرا سياسة " تيتو" السابقة التي اعتقد في رأيه أنها كانت لا تنصف الصرب.

تعلمت من تلك العبارة، أن مغازلة عواطف الناس بحثيث الشجاعة وإيهامهم بالأمن ولو كان وهميا أمر يجعلك تسوقهم أمامك كالقطيع دونما أن يفكر أحدهم، وإن ظهر ذلك المفكر، فإن قطع تأصله وتخوينه وتشويه سمعته أفضل من سياسة الحجة بالحجة!

السياسة لا تعرف النظافة، فهي كالدود والحشرات القذرة لا تترعرع إلا في البيئة الملائمة لقذارتهم، لذا لن يصلح صديقي أبو جعفر في أي منصب سياسي، لأنه ليس بذلك القذر!

ولأن "سلوبودان" كان قذرا مع مرتبة الوقاحة! فهو قادر بلا شك على أن يسيطر ويقود ويسوق، ولكن تلك الحرب التي يخوضها كانت لها كلمة أخرى على مجريات الأمور في "بلجراد".

كما تصنع الحروب في الجانب المظلوم والمعتدى عليه فضيلة من نوع ما، وفيها ذلك الوجه النبيل من المأساة؛ فهي أيضا تحمل دمارا لذلك الجانب المعتدي، بل وبؤسا وشقاء.

كنا نسمع عن انتشار الجريمة والمخدرات والمافيا في شوارع بلجراد، وأنهم الأكثر إجراما، فكافئهم الله بإجرام يحيا بين معاشرهم، فيقتلون بعضهم البعض كما يقتلون الأبرياء.

هذا هو الجانب الآخر من درس القيادة والزعامة للقائد، وهو كيف يقدر على الجمع بين صفات عدة؟ وكيف يكون ذلك القذر النبيل؟ أن يضحي بدماء البعض مقابل الوصول إلى حدود الأمان، لا يوجد وصول إلا بوجود التضحية، ولولا الدماء التي سفكها "ستالين" ما كان للاتحاد السوفيتي وجود ولا لإمبراطورية عظمي كإمبراطوريته أن تتحكم في مجريات الأمور.

الإدارة الحكيمة تصنع مجدا للشعوب، ولأن "ستالين" رحل، رحل معه مجده وراح الاتحاد ضحية مؤامرات قذرة وقرارات عنجهية متعجرفة! فسقطت الإمبراطورية.

أظن أن مشروع الخلافة الذي نبتت بذوره بين صفوف الجماعة سوف يلاقي من المؤامرات والخدع والقذارة ما لاقاه غيرنا من زعماء.

تلك اللحية لن تصنع المفارقة، ها أنا ذا، أضعها وساما يتدلى على صدري، لكني لم أكن يوما ذلك القديس مسالم النية ومقتضب المطمع.

وضعت أمامي ذلك الصراع المتنامي في الفصائل المختلفة داخل أفغانستان كدراسة أخرى للمدارس السياسية التي أستقي منها الخبرة

في الزعامة والقيادة، رأيت طالبان وإن كانت المحتضنة لنا كجهاديين، ورأيت صراعهم القاتم مع جماعة الأمراء، وحروب الكر والفر التي أباحت لمن يبني أن يسرق ويختلس.

أصبح المبدأ الرئيس هناك أن كل فرد يعمل لحساب نفسه فقط لا لحساب الجماعة، حتى قيادات طالبان كانت مهشوشة مهلهلة من الداخل.

لكني أردت الوقوف عند قاعدة ثابتة أتبعها لتجعلني أتسيد! ولأنني فشلت بعد التحليل والاستقصاء، هرعت لأبي جعفر متسائلا علني أجد عنده ما أروم.

كان الليل أسدل ستائره وما زلنا في موقع الاشتباكات، وقد هدأت لعنات الصرب المطلة فوق رؤوسنا، وعلى ما يبدو أن أصابعهم أرهقت، وقرروا إعطائنا الهدنة اللحظية، جراء تعبهم لا جراء عطفهم. فقد اتفقوا مع شيطان القلق على ألا يجعلوا أعيننا تغمض أو تغفل.

وتعاونت دماسة الليل الكاحل مع انقطاع الكهرباء، على جعلنا لا نرى حتى وجوه بعضنا البعض! البؤرة المضيئة لن تضيء لنا طريقنا، بل هي مهلكة لجارها، فقد كان الصرب يتربصون بأي وهج منير حتى يصوبون رصاصهم عليه، وبالتأكيد كان سيصيب وإن كان طائشا.

ارتكنت على حائط إحدى البنايات التي في غير مواجهة تلال المدينة المحاصرة، وسمعت حشرجة أبي جعفر في أذني، عرفت أنه من يجتاز مجلسي!

قلت له: رائحة الموت تحلق في المكان يا رفيق الإسلام:

سمعت صوت ضحكته وما رأيتها، ثم قال: مرحبا ألف مرة بتذكرة عبوري لجنة الخلد ومرافقة الأنبياء.

كتمت دمعتي بداخل مقلتي، ولم تكن تلك الدمعة سببها الوحيد أنني أخاف الموت داخليا ولا أقدر على التفكير والغوص بداخله، بقدر أن كلماته كانت مفارقة عظيمة كما كل أقاويله.

كيف لتلك المساحة الضيقة من الأرض أن تجمع نفوسا متضاربة مختلفة متنافرة، منهم من يقابل الموت بصدر الرحابة، ومنهم من يهرع لسماع اسمه أو اشتمام رائحته!

تبادر إلى ذهني حينها تلك الإشكالية التي مزقت فكري ولم أصل إلى حل فيها، وقلت: قل لي يا أبا جعفر، ترى ما هي معايير الحكم التي تخول لصاحبها بألا يفلت زمام الأمور من يده، ويظل متسيّدا حتى مماته!

قال: الحق!

قلت: فقط؟

قال: أو لا تعجبك تلك الحروف الأربعة؟ إن فيها خلاصة وحكمة كل ما نحياه وسنحياه.

إن ناصرت الحق يا أبا حمزة، ستكون دائما على موعد مع شكيمة الإقدام، وروح المفقود دونما أن يخاف أي شيء.

ورغم أن إجابة أبي جعفر من الناحية الشرعية والنظرية منطقية، إلا أنها لم تقنعني، ليس لقلة إيماني برسالة الدين السامية، لكن بسبب إيماني بأن معارك الحياة والسياسة تحتاج إلى بعض اللؤم والغدر، والخدعة! الحرب خدعة لا يسقط فيها إلا النبلاء! أمثال أبي جعفر.

اختلفت ولأول مرة مع ما يقوله لي، ولم آخذه بعين السمع والطاعة، وانفصلت حينها من مدرسته السياسية، وبدأت أضع حجر الأساس لمدرسة قيادية سياسية خاصتي حيث: "اخدع تسد".

الخديعة والمكر هما أسلحة أخرى تصطف بجانب المدفعية والرصاص والقوة الجسدية، الدهاء نصف المعركة، ولذلك قررت أن أحترفهما، وكانت أولى تجاربي الماكرة في نصب الخديعة على خلود، كنت ماكرا جدا في تلك المكالمة الهاتفية، لما عددت لها أسباب زيجتي من بدور، وأنني ضحيت من أجل إخواني الجهاديين، ولما اختارني الأميرلم أستطع رفض الأمر، وكان أمره يندلع من حيث توطيد العلاقات بين المجاهدين والبوسنيين، وكان لابد من التدخل النسبي بيننا لتختلط الدماء،

ونضمن ولاءهم وعدم انقلابهم، ومثلما نفذت أنا، نفذ بعض إخواني الجهاديين الأوامر، وكانت تلك مهمة حربية وجزء من تفتيت الصراع والمؤامرة التي أوشكت لأن تندلع بين صفوف الجيش.

ولأن النساء يقتنعن بالكذب، وبخلق الأساطير والحكايات الوهمية، ولأنني ضبطت حبكة حديثي، آمنت هي بأنني في موقف المضطر، و أنه لأمر واجب وفي نفس الوقت جاء رغما عن أنفي.

هدأت ثورتها ونجح مكري وتخطيطي، وتبقى لي أن أدس لها مخططات التنازل في كل مكالمة قادمة، حتى تسلم بقرار الانضمام إلى أسرة واحدة، بعد انتهاء الحرب.

قبر أحلامي

كانون الأول/2004 وسط القاهرة.

لا سبيل له سوى أن يحتضن الشوارع ويفترش الطرقات، فتدروش في لباس المجاذيب، وصدّق كذبته التي صدرها للناس بأنه فقد عقله وأهليته، بات يحدث نفسه ويتساءل: هل أنا حقا فقدت عقلي؟ ولكن ماذا عساي أن أفعل بعدما تشرد التنظيم وصاروا بين المعتقلين والقتلى والمسجونين، أما المسجونين كان محبسهم بإرادة حرة منهم في أحضان القرى الباكستانية؟

أنا الآن حر طليق وإن كانت حريتي تتسم بتلك القطعة القماشية المهلهلة التي بالكاد تّغطي عورتي، ولكنها الحرية المحصنة بأماني حتى مماتي، الأجهزة الأمنية والمخابر اتية لا تطارد الدراويش.

من ذا الذي سيشك في مجذوب يجول الطرقات؟ شاخت لحيته واختلطت بالأتربة وصارت عجينة من الشعر المقوى، وتداخلت قاذورات الشوارع في مسام وجهه وكونت طبقة جلدية جديدة فوق الطبقة الطبيعية.

اختلفت ملامحي بعوامل الطبيعة، وانكمش جسدي الذي أكل برد الشتاء القارس منه فتضاءل وتداخلت عظامه وتعفن جلده وتخشن ملمسه! وصار لعكازي فعل السحر الذي يستجلب نظرات المصريين فيشتد عضده ويدحض كهولتي المصطنعة وحيويتي وقوتي المستهلكة.

في إحدى شوارع القاهرة الحية والعامرة بالسكان، التي تتداخل فيها الأكتاف لحاما ببعضها البعض، وأنا بين البعضين أتخفى وأتوارى بهيئتي المقززة، وأما قزازتي كانت الثمن الذي أدفعه لأنال حريتي المزعومة، وأن أبتعد عن دوائر البحث الأمنية التي حطت من صورتي واسمي في قوائم المطلوبين دوليا.

كنت لا أكف عن مراجعة الأحداث في ذاكرتي متعللا بيني وبين نفسي بمجيء ذلك اليوم الذي سيزورفيه الماء جسدي وأستحم مرتديًا جلبابي مهذبًا لحيتي، محلقًا شعري وأقود كتيبة في وجه الظلام، ثم يناديني الإخوان بالأمير.

لم تكن قزازتي وحدها الثمن، ولكني اتخذت من الشوارع بيتا لي، وتركت صلاتي، وتبدلت طهارتي برائحة نجسة من التبول في جوانب البنايات والخلاء، وأما ليالي الشتاء فيها ما فيها من اعتصار العظام في الجلد حتى تَنَحّسَ وتعود، وكنت أخشى ذلك اليوم الذي تأخر كثيرا، حينما أصبح طبيعيا، كنت أخشى أن ذلك التعود سيأكل من طباعي، فإن العقل

يقول، تعود على ألا تتعود، كيف هو حالي إذن بالتسويف حينما أشتاق الشعور بالصقيع، فلا أجده؟!

عام بعد عام ينقضي الأول و أبث روح التمني بالصبر والأمل في حلم الخلاص في العام الذي ستنطلق غرته، وأرسم تلك الابتسامة مجبورة على وجهي في خلسة من الليل، تنام فيه العيون عن مطالعتي، وأجدد نشاط الذاكرة، و أبحر عبر خطوط الزمن أشق غبار الماضي، أتذكر أيام مجدي، وأشتاق صهيل الاشتباك، وحنق القلق، وزفير الحمد لله الذي كنت أزفره لما تحاوطني عناية الرحمن و أنجو من موت محقق، اشتقت أجزاء البندقية، ومعسكرات التدريب ووجوه قادتي المحلاة بالسماحة، وخطط الهجوم ويوم إعلانها! أشتاق الصلاة في جماعة، وهدهدة القلوب متمنية مدد الرحمن لسحق العدو! أشتاق الرحالة والسفر وخيام الصحراء! أشتاق جموعهم وسماع أصواتهم منشدة بأعذب التواشيح، وعلى حجم اشتياقي كان سأمي ومللي من وجوه النساء التي تتو افد كل يوم على تلك الطرقة المتجزئة من الشارع الرئيس؛ حيث مقطني وسكني أغث سياراتهم وأصوات موسيقاهم المنبعثة من نو افذ الفراهة، حتى ذلك الشاب الذي يمر بجواري الآن فيقضم طعامه ماشيا، أمقته و أكرهه!

ألعن ساعة الاحتياج التي يحن عليّ فيها رجل قد تقامرت الشفقة مع الاستعطاف على قلبه، فأذن عقله لهما بأن يقدما لي يد العون

والمساعدة، فيما كانتا تتمثلا في قطعة خبز وبضعة جنيهات! فأمسكهم من يده، لأنهم بالنسبة ليّ وإن طووا الإهانة إلا أنهم سبيل لحياتي!

أضرمت في جو انب تلك المعادلة النيران مرات ومرات.

تساءلت: ترى أيهما أكرم وأشرف لي؟

أن أموت برصاص الأمريكان؟ أم أن أتعاطى التسول بعيدا عن عيون المخابرات والأجهزة الأمنية حرا طليقا، أتنفس هواء الناس ويتنفسون هو ائي.

ذلك الهواء الذي حرم منه رفاق الجهاد.

ضاجعت المثابرة في عقر الصبر مرارا وتكرارا ولكني مللت!

أتراهم ملوا مثلي؟

أنا الشيخ "طيشة"، محمد مرزوق جاد الرب، يصل بي الحال لأن أكون متقعرا على حافة الطريق، ضربت أخماسي في أسداسي، وصرخت بعلو صوتي قائلا: لاااا، حتى التفت المارة لضجر صوتي، وآزر فضولهم سياج صدري! ور أيت في عيونهم تساؤلات، وشفقات وضحكات، كل بحسب معدل الإنسانية في دواخلهم.

لملمت حنقي الذي تطايروأصبح صياحا، وقررت الثورة على نفسي وعلى وضعي الذي آمنت بأنه هلاك بطيء لا يقل عن هلاك رفاقي.

أقسمت بأنني سأترك تلك البقعة الزهيدة ولباس الدراويش وعصا الاتكاء وحصون الأمان، وأن أواجه، أجمع الشمل الذي تفرق كفرق جراد في مواسم الهجرة، وبقي السؤال من أيهم سوف أبدأ؟ و أنا لا أعلم عن مجريات الأمور غير تلك التي ألتقطها من أفواه المارة وهم يحدثون بعضهم ، وذلك هو الشح بحق، جموع الناس أغربت عن السياسة لأنها بلا أمل، وتبقى في حويصلتي العقلية تلك الأخبار التي أحفظها في صندوق ذاكرتي الأسود لما قررت الهرب! لما قالها "ابن لادن" فروا و انجوا بأنفسكم، لما شنت الإدارة الأمريكية ذلك الهجوم الغاشم حين جاءنا الرد على كذبة مانهاتن[1].

أجمل ما فعلته أنني احتفظت بأوراق تسعف الذاكرة حينما يأتي اليوم الموعود، وأعود! أعود لحيث أول الصفوف.

خبأت حينها دفاتري بين ثنايا الثرى، وفي ثغرات تلك الحفرة، وضعت خلاصة ما فات، وحلم الجهاد ورسالتي العظمى، ثم ردمت عليها بعد أن

1 - أحداث ١١ سبتمبر.

رسمت خريطة في ذهني بمكانها وكأنها الكنز الثمين! مصحوبة دفاتري بحفنة من الأموال التي تعينني حينما ألتحم بقطار العودة!

كنت حينها و أنا أدفن مخطوطاتي وحلمي وأموالي، أحذر تقلبات الزمن، وغدر الذاكرة وقساوة حياة الشوارع، خفت على مستقبل مجهول لا أعلم مثواه أو أقدر خرائطه.

أغلقت حينها حفرة الحلم، وسقطت دمعة! أظنها لن تجف إلى الآن، فيها من الوجع والحسرة والخوف والقلق والتمني والأمل ما يعادل شعور شعب مأمول بحلم التحرير.

عزمت على غزو الواقع، ورفع أعلام الأمل فوق جسور الخوف والترقب، و أنا أبدأ من جديد! تحركت في اتجاهي لنقطة الانطلاقة.

حيث حفرة الحلم.

اتكأت على عصاي العجوز، حملني وحملته، ونظرت لقارعة طريق، آوتني واحتميت بها لسنين طوال، لم تهن عليّ العشرة، وسقطت دمعة مثيلة لدمعة الحفرة وأظنها لن تجف إلا عندما أصل لمبتغاي.

تبيان الفرق بين الدمعتين كان جليا، وأخذني لحيث ليال عنيدة، هذبت من خُلقي وصوفت من إيماني.

أخذت ألملم قماشة وغطاء كانوا الأهل والصديق، لأيام و أيام، وقبلت آخر قطعة خبز كنت أحتجزها لأيام الجوع! ثم قطعت الجذوع، و انطلقت.

الطريق الطويل يبدأ بخطوة، والخطوة المفعمة باليقين والعزيمة تغاير خطوات راحت تتقدم في طريق المعصية أو طريق ضل أهدافه.

الهدف والحلم لم يكن يسيرا لنا، ورغم صعوبته فهو أيضا لم يكن صعبا متقعرا.

كنا نحلم بعالم إسلامي ووئد للظلم وأعوانه، كنا نحلم بوجود إسلامي يوازي حق ومكانة الإسلام العظيمة.

النقطة الفاصلة بين حدود اليسير والصعب هي أخطر من أخطر نقاط التفتيش الحدودية الدولية، فيها تنكشف العورات وتنفضح النوايا، وتنجلي الهمم!

هناك فرق بين أن نكون عظماء لأجل أنفسنا، وأن نكون عظماء لخدمة دين وإعلاء كلمة إله قد انبثق الحق من سمائه.

الأطماع والغريزة البشرية والأحقاد والضغائن تصنع فوهة مثقوبة في الجسد، تأكل من مساحات أزره، وتنهك قوته وتضعف خلاياه، ويتفتت شيئا فشيئا

وهذا ما فعل فينا أو فعلناه في أنفسنا، فكنا الفاعل والمفعول في الآن نفسه! كنا الجاني والمجرم، كنا الظالم والمظلوم.

ويبقى هؤلاء سليمي النية وعزيمي الإرادة، وصالحي الخلق من يقطنون المنطقة الفاصلة بين اليسير والصعب!

أنا أيضا كنت فاعلا ومفعولا، فلا أعفي نفسي من المسؤولية، ولا أحمل غيري ذنب التفكك! كلنا آثمون، وإن كانت كلنا تلك لا تحمل بين طياتها رموزا بعينها، لكنهم آثمون بفعل الصمت، وإن كان صمتا اضطراريا، فلو تبدل الصمت بثورة! ما كان لكان أن تكون.

الآن ألعن نفسي ألومها وأجلدها يوم قمعت صرخات أبي جعفر، وأطبقت بصرخاتي على فمه، فتلجم وصمت!

ليتني سمعت ما قال، ونفذته، ليتني وليتنا نحن صف القادة لم نغلق آذاننا على آرائنا، ولم نتوقف عند ذلك الغضب الذي ملأ قلوبنا.

ذلك الغضب الذي تراكم طيلة الحرب حتى ذلك اليوم المشؤوم الذي سمعنا فيه خبرنجاح مساعي الأمريكان في عقد اتفاقية "دايتون"[1]. كانوا يتخيلون بأن السلام سيحل وستنتهي المأساة من حيث تصافح الزعماء، لكن خاب ظنهم كما خيبوا آمالنا!

من عند تلك الاتفاقية بدأت الحكاية، وتفاقم الصراع وخلقت المأساة الحقيقية.

صرخت حينها عندما جاءني الخبروقلت: لا.

و انسابت دموعي، ليس لأن الاتفاقية تعتبرهزيمة لنا لا نصرة لهم فقط، ولكنها انسابت لأجل هؤلاء الذي ضحوا بأرواحهم وحياتهم فداء للقضية! ثم أصبحت دماؤهم كالماء الفاتر الذي لا يؤثرولا يتأثر.

قلت حينها بحنق و أنا مولي وجهي شطرقبور الشهداء "قم يا صديقي إن الزعماء قد تصافحوا".

---

1 - اتفاقية سلام برعاية أمريكية بين "البوشناق" و"الصرب" و"الكروات" والتي قضت بتقسيم البوسنة إلى دولتين، دولة للبوشناق والكروات، ودولة للصرب.

=

تصافحوا على جثث الحق وطعن العدل، وتناسوا من اغتُصبن من نساء طاهرات عفيفات، ومن مات من رجال وأطفال وشيوخ هذا الشعب.

كان الغضب يومها يزلزل أرجاء اللواء في "زينيتسا"[1] وأعلن الحداد، وتخافتت الأصوات ونكست الابتسامة التي كانت تزورنا على حين غفلة من اليأس، وكمدت فرحتنا بآخر انتصاراتنا.

قبل ذلك الحدث بيومين كنا قد سجلنا انتصارات كاسحة في صلب الجسد الصربي، في معركة "بدر البوسنة" في أيلول 95

أتذكر سقوط رفاق الكتيبة وهم يسقطون واحد تلو الآخر في العشر دقائق الأولى من المعركة حتى ظننت أننا خسرنا المعركة، استشهد سبعة منا وبقيت أنا وجهاديين، حتى جاءنا المدد من كتيبة المقاتلين العرب بنحو 500 مقاتل، وبدأنا في استعادة قوتنا ونصبنا الخطة وهجمنا هجوما قاسيا، ولقنا الصرب درسا لم ولن ينسوه، صحيح أن لهذه الحرب خسائر في الأرواح والمعدات إلا أننا استطعنا تحرير نحو 56 قرية بوسنية ورفعنا الحصار عن مدينة "مجلاي" وعن الخط السريع بين زينيتسا

1 - مقر قيادة لواء المجاهدين.

ومدينة "توزلا" وقتلنا نحو 300 مقاتل صربي، وتحررت خمسة في المئة من أراضي البوسنة.

توقفت عند ذلك الجدار الحديدي، أحمد الله على ذاكرتي التي مازلت تنعم بالانتعاش، وطالعت نهر النيل الطويل أمام مرأى العين، وأخذت أتنفس هواء قد زاره الأمل وزارني وجددت اليقين والعزم وقلت في صوت خافت: إني قادم.

مربجواري شابان حينها، كانا يتسكعان، وسمعا عبارتي "إني قادم" كانت مادة رخوة تصيداها لنصب السخرية مني، فأخذا يضايقاني، ويتغامزان بجواري.

قال أولهما: قادم من أين يا مولانا، من زمن الهكسوس؟

ضحك رفيقه بهستيريا وقال له: اتركه وشأنه بدلا من أن يتحول لكائن فضائي وتتحقق نبوءته ويقدم.

اعتبرتها وسيلة لكفهما عن السخرية مني، رفعت عصاي وحملقت عيني وخطوت خطوتين في اتجاههما، توقفا عن الضحك و انتظرا مني فعلا غير مألوف، ثم ركضت بسرعة نحوهما، وفي أقل من لحظة كانا قد اختفيا مهرولين من أمامي.

ضحكت وضحكت وضحكت، وعدت للنيل أطالعه وقلتها دونما خفوت أو مناجاة، قولتها بصوت عالٍ جلي: إني قادم.

أكملت طريقي في اتجاهي لحفرة الحلم، وشردت الذاكرة هناك حيث تلك الليلة، وكواليسها الخفية، لما أمرت بأن أخلع بدلتي العسكرية، حينها كنت أشعر أنني أنزع جلدي، نزل الخبر كالصاقعة علينا وشعرنا بالغدر وأن النهاية كانت سريعة جدا ومؤلمة، وغير متوقعة، كنا نعتقد أن الجهاد في البوسنة سيستمر إلى الأبد ولكن الساسة كان لهم رأي آخر.

تزاحم في أذني صوت الجهادي "خالد شيخ محمد" وهو يقسم وقد تداخل صوت قسمه مع بكائه وهو يردد: "أقسم بالله إنني سأنتقم من أميركا". قلت له: هل تقصد أن نجلس هنا ونحارب، كيف؟ غارة أمريكية واحدة ستسوي الكتيبة بالأرض.

رد قائلا: من قال لك إننا سنقاوم هنا؟ "إن غدا لناظره لقريب"!

ظلت تتردد تلك العبارة بصوته في أذني حتى هذا اليوم، فقد أصدق القسم ونفذ ما وعد به، لكن العواقب خيمت فوق رؤوس الجميع! وربما كان له بعد نظر، انسحب يومها وعاد لعمله الهندسي، تاركا الساحة لقادة مجاهدين العرب وأمرائهم.

لم يمر يومان حتى دعيت لاجتماع طارئ حضره القائد أنور شعبان المصري وبعض المقاتلين في مسجد الكتيبة العربية.

وأخبرنا أنه سيذهب للتحدث إلى القيادة العسكرية البوسنية لإقناعهم بأن الاتفاقية ظالمة وغير عادلة وأن لديهم أحد خيارين: إما الاستمرار في القتال والانقلاب على الرئيس علي عزت بيغوفيتش، أو القبول بالاتفاقية.

هلل الإخوان حينها صائحين: الله أكبر الله أكبر.

وبعد أن هدأت حماستهم بدأنا نتشاور فيما بيننا حول فكرة الانقلاب على القيادة البوسنية العسكرية في حال أصرت على قبول الاتفاقية.

لكن صوت أبي جعفر خرج فجأة ليعكر صفو حماستنا، بيد أنه كان الصوت الحق ولو سمعناه وفهمنا لفلحنا ونجينا، ولكنا جادلنا بالباطل فهلكوا وهلكنا.

كانت حكمته التي تأتت منبثقة من رؤيته الثاقبة للأحداث خير من حماستنا وشكيمة إقدامنا، قد أفضى بما في جعبته صراحة رغم أنه خالف التيار ووقف ضد رغباتنا.

قال حينها: أراكم تلعبون بالنار، فعلة الانقلاب الذي تنتووه سيذهب في طريقين.

أما الأول: أن نزرع فتنة مبثوثة في صفوف الشعب، ويزداد تقرحا، وهذا إن نجحتم، وأراكم لن تنجحوا.

وأما الثاني: أن الخبر سينتقل بسرعة البرق لمركز القيادة البوسنية وسوف تحبط محاولاتنا.

قاطعه أنور شعبان وقال اصمت اصمت!

نحن أدرى بمجريات الأمور عن تكهناتك التي لا صحة لها ولا عمق، دعنا ندير الحرب بدلا من الخنوع لقرارات سياسية يمليها الأمريكان على رؤوس القادة، ألا لعنة الله على كل المتخاذلين

قالها ثانية: ألا لعنة الله على كل المتخاذلين... كل المتخاذلين. أخذنا نردد خلفه: ألا لعنة الله على كل المتخاذلين.

لملم أبو جعفر حينها طرف جلبابه وجلس صامتًا.

رأيت في عينيه يومها حسرة وألما، ولكني كنت سعيدا بما ناله من عقاب فوري، لكننا أيضا نالنا من العقاب أبشعه، فقد تسربت أحاديثنا ومشاورتنا إلى الجهات والأطراف العسكرية الفاعلة في الأرض من السكان المحليين، وحدثت واقعة **14** كانون الأول للعام **95** والتي قصمت ظهورنا وقضت على كل أملنا في استمرار الحرب، بعدما عقد الاجتماع المزعوم والمنتظرين قادتنا "القائد أنور شعبان، ونائب قائد لواء المجاهدين أبو الحارث الليبي، وأمير العرب في اللواء أبو زياد النجدي، ونائب أمير العرب أنجشة الشرقي" وبين الجيش البوسني.

وفي طريق عودة قادة المجاهدين العرب من اجتماعهم مع القيادة العسكرية البوسنية مروا عبر قرية "جبشة" الكرو اتية والتي كانت تقع ما بين مقر القيادة العسكرية البوسنية ومدينة "زينيتسا" مقر قيادة لواء المجاهدين خاصتنا، وفيها كانت تكثر الحواجز العسكرية الكرو اتية وما إن وصل قادتنا تم توقيفهم على هذا الحاجز لمدة نصف ساعة.

وفجأة جاءت شاحنة من جنح الظلام، وخرج منها أعدادا كبيرة من المسلحين وقاموا بإطلاق النار على السيارة التي كانت تقل قادتنا فقتلوهم جميعا بسرعة خاطفة.

نقطة الانطلاقة

حزم الليل أدواته، وأوصد أبواب الظلمة على وعد بهبوب جديد في يوم جديد، جديد على البعض وتقليدي يشبه مئات الليالي المنقضية على البعض الآخر، يداعب بهوائه ونسماته المحلاة بلفحات البرودة وجوه المارة، يدغدغ حواسهم ويوقظ الأمل وإن كانت الحياة ضبابية.

أرى أصبوحة الوجوه تتأدلج من على يميني ومن على يساري، كل في طريقه حيث مبتغاه.

رأيت وجوها شاكرة، ووجوها عازمة، ووجوها ساكرة.

نسيم الصباح لا يخيم بحلاوته على رؤوس الناس بالخير فقط، لكنه يصب لعناته أيضا على بعض البعض، من هواة التستر بمعاصيهم أو أرباب الرزق الخفي والمتعة الحرام.

رأيت كل هؤلاء، وأنا أنظم خطوتي في اتجاهي لحفرة الأحلام، أشتاق نبشها واستخراج أحلامي المدفونة، ثم تقبيلها قبلة الحياة التي ستعيد لجسدها النبض وتعيدني أنا أيضا لحياة زهدتها طواعية لصد تمددات الزمن عن العبث بحريتي!

فكرت في اختيار وقت مناسب لنبش القبر، وما عندي سوى ستار الليل الذي سأحتمي به من نظرات العابرين، ورغم أن المكان الذي اخترته يختفي عن الأنظار ووسط منطقة زراعية في أدغال مدينة الجيزة، إلا أنني سأحتاط مرة وسأحذر ألف مرة، ومازال الطريق أمامي مفتوحا، حتى أصل لمبتغاي.

كانت تلك الرحلة الأخيرة للمجذوب الذي تهلهلت ملابسه وصارت لا تحمي جسده ولا تستر عورته إلا بالكاد، وكنت دوما أرفض استعطاف الناس وإن استعطف حالي منهم القليل، أما الكثير منهم كان يغير طريقه إن رأى هيئتي من على بعد، وكيف لا يغير! أنا نفسي لو رأيتني بحالتي لغيرت طريقي! فما عساهم من السير بجوار مجذوب قد ينقض عليهم في أية لحظة.

لحظة بعد لحظة ثم لحظات تفصلني عن القبض على حلمي، الأرض تتآكل خلف أقدامي، والوقت ينكمش! فهو ليس كذلك الوقت الذي يعذب ضحاياه.

الوقت في حد ذاته مجرم من نوع خاص، حقا مجرم، كيف لا ؟ وهو الذي يعبر سريعا كالبرق في أوقات الفرح، ويبطئ ويتراخى في أوقات الشدة!

إجرامه حيث التعنت في إذلالنا، والتلاعب على أوتار أحاسيسنا، ويالیتها الأوتار المشدودة ذات النغم الصاخب، إنما أوتار متآكلة، أكل الزمن على ظهرها و أفسدها و أفسد معها آمالنا.

آمالنا التي كانت: عدم تقسيم البوسنة، يعيش فيها مواطنوها بدون اضطهاد أو تصفيات ممنهجة لأعراق لحساب أعراق أخرى، آمالنا في أن ينجلي الظلم ويحل العدل، وتعم المساواة، ويأخذ كل ذي حق حقه!

ولكن الحق في زمننا أصبح مطموسا له وجوه عدة، أولهما هذا الوجه الذي أعلنه "بيوغفيتش" لما قال: أن أقبل بسلام غير عادل خيرا من أن أقبل بحرب غير عادلة!

تساءلت حينها بصوت مسموع يرج مسامع الإخوان: أولم يكن يعلم بأنها حرب غير عادلة؟ نحن هنا نحارب جيشا يصلح لحرب عالمية وليس لحرب شوارع، يتربص فيها المجرم بالمجني عليه من فوق تلال عالية تحاوط المدينة!

لماذا إذا دخل الحرب، لما كان يعلم بأنها غير عادلة؟ أو يضحي الحاكم بمحكوميه كفئران تجارب لاختبار قوته العسكرية؟ أو استحل هو ومن عاونه على تلك الاتفاقية دماء شهدائنا؟

ثم انتفضت من جلستي، والإخوان متراصون أمامي بمن فيهم رؤوس قادة المعسكرات والكتائب، ثم أزعنت فيهم جميعا: لقد حاربنا من أجل مبدأ

وقضية اللاتقسيم! والآن تجيء الحكومة البوسنية بقرار التقسيم، وبحل جماعاتنا الجهادية وخروجنا من هنا "وأشرت إلى الأرض التي تحملني وتحملهم" وترحيلنا لبلداننا.

أو تعرفون يا سادة أن مخابرات بلداننا تنتظر رجوعنا إليها حتى تزج بنا معتقلاتهم! نحن في نظر حكامنا مجرد مجرمين، متطرفين، نحمل أفكارا إرهابية تهدد أمنهم واستقرارهم وأمن عروشهم.

كانت الحماسة تدب في صدري حينها و أنا ألعن التخاذل و أكره وأمقت الضعف والتراجع، وكنا ننتظر عودة أمراء العرب وقائد اللواء، بخبر المسعى الانقلابي الذي بتنا كلنا عازمين على تنفيذه.

لكن جاءنا خبر لم نكن نتوقعه، قلب كل موازين خططنا، إنه خبر اغتيالهم، وقد صب على رؤوسنا كنزول الماء البارد على الجمر، عرفنا وفهمنا وتيقنا من أن العد قد بدأ، وأن القوس قد فتح ولن يغلق.

أصدر حينها القائم بأعمال قائد الكتيبة قراره بحل الكتيبة والعودة إلى أرض الجهاد -أفغانستان- وخرجنا جميعنا في مواعيد متقاربة متتالية فاقدين القضية، آملين في الانتقام.

رحلت مع من رحل، ضاقت عليّ الأرض وأعطيتها ظهري، ثم نظرت لها النظرة الأخيرة! أستودع فيها حلما قد تم القبض عليه بمرأى وبمسع من عجزنا!

عجزنا الذي تحول لطاقة انتقامية فيما بعد، تبينت خطوط تنظيمنا بشكل ممنهج وقادنا -الشيخ ابن لادن- إلى هدفه السامي، وهو أن ننتزع الظلم من جور الظالمين ونلحق بهم الخزي والعاروالفضيحة.

احتضنتنا "طالبان" بقيادة "الملا عمر"[1] بعدما أصبح لهم الغلبة وفرض السيطرة على الأراضي الأفغانية وبعدما تقهقر خصمهم اللدود "جماعة التحالف الشمالي" وأهدتنا طالبان معسكرات مؤمنة ومحمية بنفوذهم داخل "بشاور وجلال آباد" وتمركزت معسكر اتنا هناك، وبدأ التدريب على قدم وساق.

كنا نتدرب تدريبا أشبه بالحرب الحقيقة، فقد كانت الذخيرة المستخدمة في الاشتباكات، ذخيرة حية، وكثيرا منا كان ينزف دماء، والضرب كان مبرحا لكنه قد صنع منا محاربين أشداء، حتى صاح أحد المجاهدين في ذات يوم وهو يقول: لماذا؟ لماذا كل هذا التعذيب؟

جاءه من آخر الصف الشيخ أيمن الظواهري، ووقف أمامه، وكان الجهادي مستلقيا على الأرض نتيجة نزال أبرح فيه ضربا، ثم نزل الشيخ أيمن مستندا على ساقيه ووضع يده على مكان الجرح في وجه الجهادي،

1 - زعيم حركة طالبان.

وبدأ في تطبيبه وهو ينظر له نظرة لم نفهم معناها آنذاك، ولما انتهى من تطبيبه قال له: الصبر، الصبريا أخا الإسلام.

ثم قام ليخطب بصوت عالٍ: الصبريا إخوان هو من يجعلنا نعرف أيكم يصلح لمهماتنا القادمة؟ ومن فيكم من لا يقدر ؟وبسبب قلة صبره ربما يفشل ويفشل معه حلم لنا قد انتظرناه كثيرا.

قال عبارا ته، وتركنا و أفكارنا تفترس فينا.

متى سينال جهادي ثقة القادة؟ متى ما كان صبره كصبر أيوب؟

لم يكن صبري الذي تجرعته في زي المجاذيب لأيام و أيام من هباء، بل تعلمت دروسه هناك، حيث مخيم الفاروق، ومركز التدريب الأعلى حيث القيادة العامة، كنا نتدرب أقسى أنواع التدريبات صباحا ونتلقى مهامنا الحراسية في المساء!

مسيرتي كلها منذ أن خرجت من مصر متجها إلى السعودية ثم باكستان ثم أفغانستان ثم لحرب البوسنة والهرسك ثم عودتي إلى أرض الجهاد وحتى تلك اللحظة تمر أمام عيني، أرى كل موقف وكل تنهيدة موت أو انتصار قد سجلتها.

ولكني اليوم بحالة مغايرة، ويكأن مخزون صبري قد نفذ، تمنيت أن أطوي الخريطة تحت أقدامي وأصل إلى وجهتي، وتمنيت أن أملك تقليب

الليل والنهار بكف يدي، وأسدل ستائر الليل ليعم بستره و أنبش قبر الحلم وأستخرجه عازما على العودة، العودة إلى الجهاد، ولأجل ذلك الحلم توجب عليّ وضع خطة مدروسة لا تحتمل الخطأ، فقطعت حبل الذكريات ورتبت أولوياتي، بعدما استخرج الأوراق والأموال، سوف أتوجه لأي حي شعبي، تلك الأحياء التي تقترب شرفاتها من الأرض، ثم أصوب نظري تجاه شرفة قد امتلأت أحبالها بالملابس -الغسيل- و أنتزع قميصا وسروالا داخليا، ثم أجد لي مكانا لاستحم! حبذا لو كان مسجدا في وقت ما قبل الشروق، حتى لا يتقزز المصلين من هيئتي قبل حملة النظافة التي انتويتها.

تبقى ضميري الذي سيسرق دونما أن يستيقظ، ودون أن يتألم ولكن الضرورات تبيح المحظورات!

كيف سأذهب إلى أي محل وأشتري ملابس بتلك الهيئة التي أنا عليها، ربما أثير الشكوك بهذا، لذا السرقة هنا في موضع الحلال، وليمكنني الله في أن أرد الحق لمحقوقيه فيما بعد.

نعم يا "طيشة"! تلك هي أفضل الخطط، ويتبقى التنفيذ.

مر الوقت و انقضت المسافة، ونظرت لقدميّ التي تورمت من أثر السير المتواصل، ولكني سكنت آلامي بالغد القريب الذي أناظره، وجلست

القرفصاء في مكان يفصله عن قبر أحلامي كيلومترات بسيطة، و انتظرت أن تغلق العيون وينتصف الليل حتى أفعل.

وكعادة الأحلام تظل تشغل رؤوسنا حتى نجدنا ماضيين في خطى التنفيذ، هكذا كان حلمي يتسرب لأنه أصبح أقرب للو اقعية.

انتصف الليل، ودق قلبي دقة الخلاص وشعرت أن ساقي ترتعش ولم أعد أعرف هل تلك الرعشة من أثر البرودة التي أكلت جسدي وضعفي وهزلي؟ أم أنها رعشة الفرحة لحلول الفعل الذي أشتاقه منذ سنين؟

كانت تلك اللحظة أشد لحظات حياتي تأثيرا، بجوارها تفتت أهوال الحروب والموتى والثكالى والمظلومين! إنه موعد الخلاص.

وطدت علاقتي بالبرودة وشددت من أزر سيقاني ولامستها برفق كما تلامس أصابع الأم فروة طفلها، وكأنني أجازيها على قوة احتمالها لتلك المتاعب التي ارتأتها معي! شاطرتني معاناتي وتألمت فتألمت لها ولوجعها.

ها أنا الآن في لحظات الفصل، استدعيت من الذاكرة خريطة قبر أحلامي.

المكان كان ظلاما دامسا، ولفحات البرد تتقاذف كالقنابل اليدوية تهد حصون مقاومتي، والتحمت أسناني الفوقية مع السفلية، في حركة منتظمة مرتعشة، وما عدت قادرا على أن أسيطر على الرعشة! لعنت

حينها هزلي وضعف قوتي، الوقت ليس وقت تلك الهفوات! كيف لي أن أنتبه لمكان القبر و أنا فاقد للتركيز؟

الخضرة تنتشر أمام عيني لحين قدرتها على الإبصار، ويتسلط ضوء القمر الخافت متعاونا معي ضد السوداوية الحالكة!

بدأت من حيث بداية الرقعة الخضراء وبدأت في العد.

واحد، اثنان، ثلاث.... خمس وعشرون! هكذا أنا في المنتصف الطولي للرقعة الزراعية بحسب نفس مساحة الخطوة التي أحفظ انفراجتها بالتحديد.

ثم بدأت أتعمق من حيث نقطة الخامسة والعشرين في الخط الطولي متوغلا بنفس مساحة الخطوة وبدأت في العد، واحد، اثنان، ثلاث، أربع.. اثنان وخمسون.

الآن أنا فوق رأس القبر.

هنا دفن حلمي.

هنا يبيت جسد المستقبل.

لم تتوقف أسناني عن الرعشة وشعرت بحرارة في كف يدي وقدمي، ولكنها الحرارة التي تتأتى من شدة البرودة.

ثم أسقطت قامتي بين الحشائش الخضراء، وظللت أحفروأحفروأحفر، حتى لامست سطح الصندوق، زادت حركة الفكوك التحاما، و انضم حشد الضروس متتكتكا بشكل همجي وكأنها عواصف ما قبل الثورة والهياج.

بدأت أمسك بيدي المرتعشتين جو انب الصندوق ثم أحركه يمينا ويسارا حتى انتزعته كما ينتزع الجنين من رحم أمه، أخذتني دفعته إلى الاستلقاء نائما على جنبي، وهو مازال بين يدي، ضممته على صدري واحتضنته. وبدأت في فتحه للاطمئنان على محتواه، وجدت كل شيء كما تركته، الأموال والمستندات والأوراق، حملت صندوقي كما حملت أحلامي من حيث هناك إلى هنا، وبدأت في طريقي لاستكمال جو انب الخطة، ومن تلك الرقعة الخضراء، سلكت طريقا غربيا في اتجاه المنازل التي تطل عليها، وتيقنت أنني سأجد فيها ملاذي وكسوتي.

قطعت أوساط الزراعة إلى عتبات أول البيوت التي كانت في مواجهتي، ثم شققت الشوارع التي تفصلهم، حتى وجدته! وجدت صيدي الثمين.

شرفة مليئة بخيرات الله، قميص، اثنان، ثلاثة، وهذا سروال، اثنان، ثلاثة، أربعة، وهذا معطف اثنان.

نظرت في اتجاهاتي الرباعية حتى أطمئن من أن الطريق خالي من المارة، وأن الإضاءة في ذلك الشارع لا تكفي لأن يراني أحد، ثم هجمت على صيدي.

انتزعت أول جلباب ثم سروال ثم معطف، ثم مضيت مسرعا، ولكن شعورا ما كان يصاحبني بأن هناك من يتتبع أثري،

قررت الركض! وقد كان لهذا الشعور الفضل عليّ في أن تتحرك دمويتي، وتخلف الحركة حرارة في جسدي فتوقفت فكوكي عن حرب الالتحامات، وهدأت حرارة يديّ و انفضت البرودة عن قدمي.

باقي على الشروق فيما يقرب الساعة أو الساعتين بالتقريب، انتظرت أمام باب المسجد، حتى يأتيه مسؤوله ويفتح أبو ابه أمام المصلين، ثم يرفع الآذان.

كانت تلك هي المرحلة الصعبة في المهمة، إن رآني على هيئتي ربما خاف مني وربما منعني من الدخول!

قررت أن لا أجالس عتبات المسجد، وأن أبتعد عنه بما يجعلني أرى المترددين عليه، فما إن جاء وفتح! حتى انتهزت الفرصة ودخلت إلى دورات المياه.

وما حسبته وجدته، فإذا بالمسؤول يفتح باب المسجد، ثم يخرج ليفتح باب دورات المياه.

وما إن دخل المسجد مرة أخرى حتى انتهزت الفرصة متسترا مهرولا إلى دورات المياه، وأخيرا ستزور المياه جسدي المتعفن، والممنوع عنه بإرادة تامة مني، اغتسلت واغتسلت واغتسلت، حتى تقيح الصابون من مسامي المنسدة، أسود لونه وتغيرت رائحته.

ظلت لحيتي وشعر رأسي متشابكين، ولكن هذا أرحم بكثير من الوضع السابق، ثم ارتديت القميص والسروال الداخلي، ثم المعطف.

وهممت بالخروج! لا للصلاة لكني على وعد بإقامتها بعدما تكتمل نظافتي.

تأبطت صندوق أحلامي وأخذت في طريقي للخروج إلى الطريق الخارجي، إلى العمار، لكن التعود مازال يحاصرني، فقد تعودت نظرات الناس ليّ سواء كانت استنكارية أو تقززية، أو شفقة واستعطاف.

كنت أشعر أنني كنجوم هوليود الذين تحاوطهم أنظار الناس! أما الآن أصبحت إنسانا شبه عادي وما عادت نظرات الناس تلاحقني، ولكن هذا الشعور كان له وضع آخر في نفسي، فكلما مر أحد بجواري ثم لا يطالعني أنظر لهيئتي أجدني مندهشا مما أنا عليه، و أتساءل: كيف له ألا ير اني؟

ثم أستفيق على أنني الآن صرت عاديا، ولن ألفت الانتباه، لكنني بالنسبة لنفسي لست عاديا؛ لذا ألتفت أنا لنفسي دون التفات الآخرين إليّ.

استقليت أول حافلة تتجه إلى وسط المدينة، وعندما نزلت، وجدتها أمامي.

عربة الفول! أكثرت من الطلب، وأكلت كعشرة رجال، ثم انتظرت أن تنفتح أبواب الحلاقين لكي أزيل رث الشوارع. وبالفعل أزلتها، وطلبت من الحلاق أن يزيل كل الشعر من رأسي ومن لحيتي، حتى لا أصبح مألوفا لرجال الأمن إن قابلوني في أي طريق.

الآن اكتملت نظافتي، لكن الطريق الأصعب قد بدأ، وقبل أن أختار أحد الإخوان للتواصل معهم، وجب علي أن أدبر مكانا آمنا للمبيت، دون الاستعانة بأصدقاء الماضي أو الأقارب، مازلت أجهل كم وضع الأمريكان على رأسي كمكافأة لمن يجدني؟

ولا أعلم ماذا تغير من نفوس الناس عبر الزمن.

اخترت أحد الأحياء الجديدة، والهادئة والتي تبتعد عن الحركة والازدحام، وظللت أبحث عن مكان مفروش؛ حتى وجدته. وتحججت بأنني لست من سكان القاهرة ولكنني أسعى للحصول على سفر خارج البلاد، وقررت أن أمكث فيها حتى أكون بالقرب من مكاتب السفريات،

وقد دخلت حجتي على صاحب الشقة، وانتبهت أنه مبتسم، ولم أثر شكوكه بالمرة.

وكان لقائي الأول بعد أعوام مع فراش يحمل رقة بين أحشائه كما لقاء طفل فقد طريق أهله، ولاقاهم بعد أعوام.

كنت أحتضن الوسادة و أقبلها، ولكن شبح التعود كاد يقتلني، حاولت أن أذهب في رحلة استجمامية مع النوم المريح، لكن عيناي أبتا الاستسلام، قد تعودت النوم تحت إضاءة عمدان الإنارة وصوت تنبيهات السيارات وقهقهات الشباب في الشوارع.

أمسكت بحلمي -صندوقي- وفتحته وبدأت أقلب في الأوراق.

الورقة الأولى "ضباب سبرينيتسا"

جامع الذي لا يجمع

تغيروجه مصروتبدلت معالمها، غابت تلك الرائحة التي كنت أشتمها في شوارعها بالدفء وإن كانت الأنظمة تعكرعلينا صفو الحياة! لكن الناس أنفسهم ما عادوا بتلك الأصالة وهذا الود الذي تركتهم به عندما انتويت الرحيل في خريف 88.

الآن أرى مصر بعين المعتدل، غير المجذوب وغير المراقب! أطالع وجوه الناس بشيء من التمحيص، أرى الهموم تتساقط من وجوههم.

قادتني أقدامي لحيث أحد المقاهي، قررت أن أكسر عزلتي ومخاوفي لكي أنعم بقسط من التغيير، و أبدأ في اتخاذ قراري بمن سوف أبدأ؟

صوت التلفاز يجمع الناس حوله كالمغناطيس، وتمتزج أصواتهم الحماسية بهتافات التشجيع والحسرة، كل حسب وضع فريقه الذي يؤازره.

ابتسمت حينها على تلك المنهجية التي تتبعها الأنظمة البيروقراطية لإلهاء الشعوب عن حقوقهم المهضومة! سياسة "انظر العصفورة" ثم بعدها تمرير كل القوانين وفرض كل القيود دونما أن يعبأ رأس النظام

بأي توتر أو اتقاء شر هيجان شعبي! الشعب تم تخديره بنجاح، مستخدمين أفيون الانقسامات.

صوت قرقعة الكراسي بدأ في التزايد، معلنا عن انسحاب رواد الرياضة، مصحوبا بقنبلة جدال قد أوشكت على الانفجار،

يقول أحدهم: والله لولا الحكم ما ربحتم.

يقهقه الآخر ويشير بإصبعه قائلا:

حجة كل مرة، أنصحك بدفن نفسك، أو أن تتوب ولا تشجع الزمالك مرة أخرى.

عبارات هنا وهناك واحتداد وغضب، ثم ينسحب البعض، ويتحول البعض الآخر لتغيير النشاط! وتبدأ مباريات ألعاب النرد، والصياح يتحول من:

العب العب، باصي طيب، لـ"دش لا، دش لا..... شيش جوهاريارب".

الآن فقط ترحمت على حال بلادي، وانجلت كل آلامي وهمومي التي كانت! أن أفترش الطرقات ألتحف البرد في ليالي الشتاء، لهو أهون عليّ من أن أغيب وأموت وأنا مازلت حيا.

كيف لهؤلاء أن يعيشوا بلا قضية؟ وكيف لهم أن يحولوا أقصى أقصى أحلامهم إلى فوز فريق يضيف لقوائم لاعبيه نياشين النصر دونما أن يلامس المشجع أي شيء كفخر له من هذا النصر.

هم يشجعون، وتنجلط أصواتهم بالهتافات، وغيرهم يحصدون الأموال والشهرة والمجد.

"عجبت لأناس يأكلون أصابعهم من أجل نصرة أشخاص هم في سبات القهقهات يفترشون".

إلى متى؟ إلى متى سنظل عرائس تحركها الأنظمة، وتتلاعب بحرياتنا وحقوقنا؟

حقا: إن كنت ضد النظام، فأنت تعي وتفهم معنى النظام، وإن كنت تؤيد النظام، هنيئًا لك بالنظام ومرحبًا بك عدوًا جديدًا لأعداء النظام، وإن كنت لا تبالي بالنظام، عفوًا لإيقاظك من غفلتك، أنت هدف كل نظام استبدادي ومتجبر!

انكمش صدري ضيقا وبدلا من أن أحسن مزاجيتي ساءت أكثر من ذي قبل.

لملمت أطراف شملتي وأخذت أجمع أنفاسي، متوجها لغرفتي المتواضعة، لكي أصل إلى القرار المؤجل.

بمن سوف أبدأ؟

أبو جعفر أم أبو حمزة، أم خالد شيخ محمد، أم رمزي بن شيبة؟ بمن؟

ألقيت بجسدي المنهك على فراشي، و أنا مازلت لم أصل إلى قرار أول الخيط، وأمسكت بدفتري الذي كنت أدون فيه أهم المراحل الحاسمة في حياتي الجهادية، وطالعت تلك الورقة "ضباب سبرينيتسا".

استحضرت ذلك النفس العميق من جذور أعماقي، وقلت: يا الله، كم كانت مأساة سيظل التاريخ شاهدا على وحشية الأنجاس، وعلى أفعالهم القذرة فيها؟

إبادة للمسلمين العزل بالألوف واغتصابات للنساء الطاهرات، لم يرحم جند الصرب صغيرا ولا عجوزا من همجيتهم، على مرأى ومسمع من المجتمع الدولي الذي ساعد بصمته على ارتكاب مزيد من الجرائم.

تخفى الصرب حينها في زي جند القوات الأمريكية، حتى يختلط الأمر على نازحي المدينة، طالبوهم بالاستسلام، ثم يستسلم الناس طلبا لمقايضة الأمان! وظنا منهم أنهم يستسلمون للأمريكان الذين انتشروا في أرجاء المدينة بعد قرار مجلس الأمم باعتبار "سبرينيتسا" منطقة منزوعة السلاح! والنزع هنا كان فرضا على الأطراف المتحاربة كلها، لكن وبتدليس بيّن، نزع السلاح من جانب البوشناق، ومع ذلك فالقرار لم يطبق عل جانب الصرب، صارت المعادلة أكثر جورا وظلما، فوق ظلمها السابق.

إلا القلة القليلة وحكماء رجال البوسنة، الذين لم يسلموا كافة أسلحتهم، مستندين إلى أن الحرب خدعة، ومن الجائز أن يصطدموا بمؤامرة محاكة ضدهم، وقد كان، وكانت الخديعة، أن يصبح البوشناق عزل، والصرب بكامل عتادهم وتسليحهم.

مارس الصرب أبشع مجزرة تجاه شعب البوسنة الأعزل، وتمت تصفية عرقية ممنهجة، ووسط ذلك البحر الدموي يظهر "سلوبو" في التلفاز بزيه العسكري، وهو يتجول في القطاع، ويداعب طفلا بوسنيا سائلا إياه، ما اسمك؟

يرد الطفل: عز الدين.

عز الكرامة، وعز الإسلام، وعز الصمود، وعز الدين، الدين الذي حاربنا لأجل نصرته ورفع رايته عاليا من تدنيس الأشرار.

هكذا كانت تحل دماء الأبرياء، ويغازلنا بعفيف العبارات، وجنوده تنفذ مذابح ممنهجة في البر الآخر من المدينة الصامدة، وصمودها في أنهم رغم تجرع المأساة وهولات الحرب، وبشاعة الدماء، إلا أنهم صمدوا، ولم يتزحزح نفر منهم عن إيمانهم بما هم فاعلون.

الحروب دائما ما تقصف في قلوب الشعوب المظلومة والمنهكة، الصلابة والتحدي، والاستخفاف بنقطة النهاية، بثقافة "مهما كان الشيء الذي سينتظرنا، لن يكون هناك شيء أبشع من الموت".

وبتلك الثقافة قابل البوسنيون الموت برحابة و إيمان ويقين، يقين أن الله الذي لم ينصرنا؛ حتما سوف ينصرنا!

النصر ها هنا كان في التكاتف والتجمع على كلمة رجل واحد، والتضحية في سبيل القضية، وليس ذلك فحسب، بل كان في نبت بذرة الحب الخالص، سليم المنبت والجذر.

كان لذلك الخبر الذي وقع على رؤوسنا فعل السيل الجارف الذي يمسح القرية ويقلب موازين حياتها.

أبو جعفر قرر الزواج!

لو أنك عاشرت أبا جعفر، لعرفت أن مبدأ الزهد والقنوت عنده أسلوب حياه. الرجل لا يطمع في أي شيء، وليس لديه آمالا ولا مطامعا، سوى نصرة الحق ورضى المولى عزوجل، كان راديكاليا[1] من أخمص قدمه إلى أعلى رأسه، اتبع منهج، "عبد الله عزام" ولاسيما سياسة "ابن لادن". ومن ثم فكرة متاع الدنيا عنده كانت فكرة بعيدة عن شباك طموحاته، لكن مع مرور الوقت، فهمنا جميعنا السبب الخفي في قرار أبي جعفر.

1- التعصب والتصلب الأقرب للتطرف وتهدف لتغيير الواقع السياسي، وهي مصطلح يبحث عن جذور الخطأ اقتصاديا وسياسيا.

أبو جعفر قد أوفد على رأس كتيبة متكونة من مائتي جندي، زحفوا إلى "سبرينيتسا" لدعم إخواننا البوشناق ضد التمدد الصربي، وعاد لنا بزوجة مبتورة الساقين كما سمعنا، وأهداها كنيته وصرنا نهنئه بزواجه من أم جعفر.

لم نرها ولم نعرف حيثيات إتمام تلك الزيجة، لكنها تمت بوسط مباركة الجميع، وعلى رأس المهللين كان صديقه المقرب أبو حمزة.

ورغم أني كنت أكشف مطامع أبي حمزة التي كانت تتساقط من أطراف حروفه، إلا أنه خيار مهم ربما سأقرع بابه الآن للانخراط في معمعة الأحداث من جديد! هو القابض على أغلب مفاتيح العلاقات برؤوس القادة، فقد عزز من تواجده بدهائه وتوطدت علاقاته بشكل موثق بعدما أتم زيجته الثالثة من أخت رفيق الجهاد "الشيخ قطربن قتيبة"، والذي كان عضوا بارزا في القاعدة.

كنا جميعنا نتساءل كيف لهذا الرجل -أبو حمزة- أن يصل لتلك الدرجة التي تجعل القادة يقتنعون به، ويرفعون شأنه يوما بعد يوم.

كنت أنا من أول النافرين منه، ومن أسلوبه التطلعي الذي يسني المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، وحضرت معه أهم لحظات حياته، سواء السعيدة أو البائسة، أما البائسة: فكان أهمها على الإطلاق

فشل مزاعمه وجيوشه الإقناعية في الجمع بين الزوجات الثلاث تحت سماء كابول.

أبت زوجته السعودية وأم أولاده أن تترك ديرتها وتذهب معه، و أبت زوجته البوسنية أن تغادر بلادها بعدما انتهت الحرب و انفض الجمع الجهادي، وتبقى أخت الشيخ قطروحدها من تر افقه بحكم أن عائلتها كلها، تعيش على أرض أفغانستان.

فشل جامع في تجميع زوجاته، وعانى أمر المعاناة، وأصبحت مأساته الحياتية كما فشلنا نحن -المجاهدين- في منع تقسيم البوسنة، وتجميع سكانها تحت مبدأ مواطن واحد، ووأد الصراعات العرقية والدينية.

وقد كان لأبي جعفر دورا ملموسا في مساهماته لإقناع زوجات صديقه بحلم "التجمع" الذي أكل من عقل جامع، ولكنه أيضًا فشل.

أتذكرذلك النقاش الدامي الذي سمعته بالموازبة بين جامع و أبي جعفر! ريثما قال له أبو جعفر:

أتريد أن تنجح يا جامع فيما فشل فيه العرب على مدارمئات الأعوام؟ يا رجل أفسح صدرك للصدمات، إن كنت تتمنى لمّ الشمل، وجب علينا أن نرثي حالنا -نحن العرب- لما أصابنا من وعكات الانقسامات!!

ابتسم

أمقت هؤلاء الذين يعتقدون بأن الله لم يهد سواهم، أصحاب التفويض الإلهي وراعي الفضيلة ومالكي صكوك الجنة! إنهم في نظري ليسوا إلا تجاردين.

"طيشة" و"نايك" وبعض من قيادات لوائنا، حتى "جامع" إني أرى فيه نفاقا من نوع معين، أثابر لتهذيب سلوكياته قدر المستطاع، لكني أخاف أن يراني كما أرى أنا هؤلاء، ثم إنني دائما أعتزل الجدال، أغير ما أقدر على تغييره بقدر المستطاع، لكني لست بوصي على أحد، رغم خبرتي الدنيوية في اختراق نفوس الناس، أراهم من الداخل، وتصح أغلب استنتاجاتي المبنية على معرفة سطحية، أقرأ هؤلاء أكرههم لأنني كشفت ما بهم من ازدواجية، العيوب وحدها لا تكفي كعامل يزيد الكره في نفوسنا، لكن النفاق وإظهار خلاف ما نبطن لهو أمر جلي، لا يمكن أن أتقبل صاحبه أي أن كانت قيمته عندي، قيل لي ذات مرة يا أبا جعفر: لماذا لا تتزوج؟ قلت: إن مؤسسة الزواج تُبنى على أساس فلسفي في منظوري وهو "أن نتغافل مرة، وأن نمرر مرتين، ونسامح مرات" ولأنني لا أقدر على التغافل والتمرير، أعرضت عن الزواج، حتى أجد تلك

المنضبطة التي تستقيم معي في حياة لا تسمح بالتغافل والتمرير! الخطأ في حد ذاته ليس حجة على بتر عنق صاحبه، الدين سمح، والتوبة جميلة! نُخطئ حتى نتوب، ثم نقبل في التوابين بشرط أن تصح توبتنا بطرفي الشرط ولاسيما "الاعتراف بجرمنا، وعدم العودة لفعله مرة ثانية"

سألت نفسي مرارا لماذا أنا هنا؟ ولماذا تركت عائلتي ورائي؟ ولماذا أنضم إلى كتائب الموت؟ أو يسعى من هم مثلي للفوز بالجنة وحور العين؟

أظنني لا أطمع سوى في رضا ربي، وتلك فلسفتي الحياتية للدنيا، هي رحلة قاسية نجبر على أن نخوضها، ومن يعقل الأمر جيدا ويزنه بحكمة، ينتهي به الحال أن كل تلك الصراعات والمؤامرات والنفوذ والأموال، لهي هراء، السلطان سلطان الله والنفوذ من عند الله، والأموال في خزائن الله، وبلمح البصر قد يضيع كل شيء إذا أراد الله.

الله، ظللت أتذوق طعم تلك الحروف التي تخترق قلبي، ويقشعر جسدي، وترتعد أطرافي من مهابة لفظ جلالته، ثم أردد بابتسامة ثاغرة: اللهم اقذف في قلبي حلاوة الإيمان أكثر وأكثر، اللهم يا مقلب القلوب لا تقلب قلوبنا عن حبك، وثبتنا على رضاك وحسن طاعتك.

تنفست نفسا عميقا ثم وليت وجهي ناحية القبلة وسجدت سجدة شكر على ما أنا فيه من نعم، يكفيني أنني أتجرع الإيمان بدون معاناة

الشكوك، ويكفيني أنني راض جدا عن تاريخي، ولكن في القلب غصة، نحن دائما نطمع في هداية من نحب، وأشهد الله أنني أحب هذا الرجل.

في المرة الأولى التي طالعت فيها "جامعا"، قلت في نفسي: إن ذلك الرجل سيصل يوما ما، في عينيه تحد وإصرار غريب الشكل، طول قامته كان بالنسبة ليّ سببا في نفوري المبدئي من مجالسته، وتلك من إحدى عادتي السيئة التي تمنيت أن أتطبب منها، وعقدة قديمة تربت في نفسي الضعيفة إلى الله، في أن الشكل والبنية ترسم بداخلي مصدات نفور - ربما- أو تزاوج وترحاب.

عرفت جنسيته من ملامحه الجنوبية الواضحة، شاربه البسيط الذي يتوسط وجهه، لو كان بدون لحية، لأصبح معروف الهوية لكل من يراه، بدون أن ينطق بكلمة واحدة، بشرته البيضاء، جعلتني أقرع طبول اليقين في أنه من أهل الجنوب، وبعد أن سمعت نبرته الأولى منطلقة تجاه نو افذ سمعي، لمعت في عيني تلك الذكرى التي تسعد أساريري مع أهل الجنوب، تسعدها لأن الماضي حلو مهما كان قاسيًا.

رجال ألمعي، تلك القرية الصغيرة، والتي اشتهرت بحجة أهلها بالبيان والثقافة، وتلك الزيجة التي ساقني إليها أهلي و أنا في معترك البداية، ثم ثورتي ضد التقليدية التي حاولوا إجباري عليها، صحت بكل ما فيّ: أنا لا أريد هذا المصير، لا أريد الزوجة والأطفال، ثم الوظيفة المبنية على مبدأ

عدم الاستحقاق والمتأتية من استخدام نفوذنا العائلية للوساطة لي ولإخواني، ثم السيارة التي تميز طلة السعوديين بأقساط بنكية مؤكدة الشبهة والربا، ثم البيت الذي سأبدل أوراق المقاولين لبنائه كما نقلب أوراق ذكريات حياتنا، وأرتضي أيهما أقل سعرا وأنا على يقين من أنه سيسرقني في أطنان الحديد وجودة الخرسانة.

بالله ما هذه الحياة؟ أين حلاوة الزهد، وترك الملذات، والبحث في عظمة الخالق، وتأمل الأقدار ودراسة حياة الفاجر والصالح! ونصيح مهللين: الله أكبر!

لو عرف الناس قيمة وقدر التكبيرة في كل آذان سينصلح حال الرعية، وما كنت هنا اليوم لأجاهد في سبيل نصرة حق مكلوم، واستنصار مظلوم، ورفع الجرم من على رأسه.

لو يعلم قادتنا بأن ذلك التنظيم يشوبه الفساد وإن كان في النفس، وأن الإمارة ليست إلا ترتيب أولويات الجماعة لشق طموس المخدوعين بغرور الدنيا الزائل لتغير حالنا، وما كنا في ذات يوم نحارب لنصرة الكفرة.

"حاصر حضورك بالترقب" كانت تلك كلمة شيخي كرم الله وجهه حينما كان يزرع فيّ مجاهدة الملذات ومراقبة الذات، وتقويمها.

الآن أسائل نفسي: ماذا أخذنا من ذلك العالم؟ وماذا ستعطينا الدنيا لمواجهة الحق سوى أعمالنا.

أتحير أمر المكنزين للأموال والمتقاتلين من أجلها، المال في نظري إن لم ينفق في سبيل الله، لا فائدة مرجوة منه، حتى لذة الطعام والشراب والنوم زهدتهم؛ علني أفعل ما يرضي الله بدلا من أن أتذوق الراحة أو سد حاجتي البشرية.

هل يفهم "جامع" نظرتي تلك؟

ما ظننت، ومع ذلك حاصرته باهتمامي وبرعايتي له، قبل أن تنغمس أقدامه في الخطأ، ألاحقه وأرشده لحيث طريق الخير والسداد.

هل يفهم "قادتنا" تطلعاتي بمستقبل آخر خال من الشرور والضغائن؟

ما ظننت، ومع ذلك ألتزم الصمت ولن يتحرك لي مرفأ لأنني لا أحب الجدال ولا أحب الأضواء.

اتجهت أنظار القادة لصناعة دولة جديدة بنكهة الخلافة الإسلامية، ولا أرى ضيرا في هذا، ولكن الضرر الحقيقي هو ذلك الصراع وهذا البغض الذي يتلثم في صدورهم!

كيف سنخلص ونوفي الحق تجاه ديننا وقضيتنا بيد أن نفوسنا محملة بكل هذا السواد.

إني أراه، أراه وإن تخفى وتخبى، أرى الكره في صدر "طيشة" ناحية "أنور شعبان" وأرى الكره في صدر "جامع" ناحية "طيشة" وأرى الكره في صدر "شيخ محمد" ناحية ابن لادن.

ولكني أحب ابن لادن رغم تحفظي على بعض من تلك الأسماء، مهما كان له من أخطاء إلا أنه صاحب راية التوحيد والتجمع تحت لواء الجهاد.

حاربنا في أفغانستان وأنزلنا بالدب الروسي هزيمة نكراء، وحطمنا أسطورة الجيش الذي لا يقهر، كانت حرب رجال، حقا رجال، كانوا يتلقون الموت برحب صدورهم، وتخرج أرواحهم والبسمة مرتسمة على شفاههم دونما أية غضاضة من مفارقتهم لدنيا الزيف والخداع.

أما تلك الحرب فلم تكن حرب أبطال، إن خنازير الصرب الذين يتربصون بمسلمي البوسنة العزل من فوق التلال لهم أبشع من قابلت، ومهما كانت الحروب خديعة، ومهما كان النصر طريقا وعرا لا يعرف في معابره نقاط الرحمة، لكن العسكرية شرف والشرف هو ألا أتقامر مع الضعف والهوان على خصمي، وأسلبه الحياة لذنب لم يقترفه.

لعنة الله على أمثالهم ممن لا تشق الرحمة طريق صدورهم، وأما صدري له الله، فعدت أشفق على ضلوعه و أنسجته.

كلما رأيت مشهد الدم المتناثر من رأس طفل أو عجوز، تثور ثورتي، ويغزوني ألم، لم أجد له علاج!

العلاج الحقيقي لتلك المجازر، أن يتحرك سادة العالم، وينظرون بعيونهم التي فقدت البصيرة إلى مربع الدم، ويتدخلون بأعراف الإنسانية ليمنعوا تلك المهازل.

مهما كانت قوتنا العسكرية و إيماننا بما نحن فاعلوه فإنا لن نحرك ساكنا في جبل الوحشية الذي نناهضه.

أيقنت ذلك قبل مجزرة "سبرينيتسا" وقبل قصف "كوسوفو" وكنت على يقين بأن المفاوضات الدبلوماسية يجب أن تسير جنبا إلى جنب مع الحل العسكري، وإلا سيحل سلام غير عادل في ذات يوم رغما عن أنوف الجميع، وإن حل سأرفض بنوده داخليا لكني سأتفق مع علانيته، ليس لأنني أخاف الموت، لكن لأجل مبدأ الإنسانية والرحمة بشعب قد أنهكته الحياة المأساوية، وصار الموت خيارا رحيما له!

بالله، أي عدل هذا أن يتمنى الرجل حتفه، عوضا أن ينال حياة تحت رايات الذل والمهانة؟

حماستنا وحدها ليست كافية، الحماسة لن تصنع و اقيا فولاذيا يحمي شعب البوسنة من رصاص الصرب، ولن تغلف أعراض الفتيات بجدار حديدي يمنع اغتصابهن من الأنجاس، ولن تحمي سيقانهن من البتر! ولن تداوي آلام وهولات الحروب في نفوسهن، مازالت "زوجتي" تبكي إن سمعت صوت ارتطام، مهما كان هذا الارتطام.

ترتعش كلها وبعضها، ولا تهدأ إلا عندما أضمها، وأمسح على شعرها، و أقرأ في أذنيها آيات من الذكر الحكيم كي تطمئن وتأمن، ثم ما ألبث في بث السكينة في قلبها، وأصالح بعضها على بعضها، وأحول طاقات الغضب التي اكتست كلها إلى أساطيل احتساب، احتساب وصبر لوجه المولى عزوجل.

ثم أشرد لهناك.

أشرد وفي صدري ألم لأنني تمنيت أن تكون في موضعها امرأة أخرى، أشرد لأن حناني لزوجتي حنان مزيف، هو في الأساس كله ملك ل...

تساءلت مرارا ماذا سوف أقول عنها لوريقاتي، إني وإن كنت أظن في نفسي مهارة ترتيب الحروف، لكني عندما أفكر أن أكتب عنها تتضاءل لغتي وينكمش بياني، وأصبح تائها ألهو بشخبطات تتلاقى عند نقطة! المهم أن تتلاقى.

كنت أظن كما يظنون بأن قلبي لا مكان فيه للحب، كيف؟ وكيف؟ وكيف؟ ولا يعلم مجموع تلك الاستفهامات في صدري سوى الله!

الله الذي ساقني يومها إلى "سبرينيتسا" ضمن الإخوان المجاهدين، لأكون شاهدا على فُجر الصرب، ولتشهد أرض "سبرينيتسا" على مولد عشقي لها.

صار القصف داميا يحلق من فوق رؤوسنا، وقد أصدرت الأمم المتحدة قرارها بجعل "سبرينتسا" منطقة معزولة السلاح، وألقت بجندها كقوات تحمي تطبيق القرار، لكنهم كانوا وفي الحقيقة متعاونين مع الصرب بصمتهم اللاذع غير المبرر.

كنت أنا وسبعة من إخواني نتولى أمر قرية بجنوب "سبرينبتسا" وتسترنا بأبنية البوشناق نحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ونسلح من يمكننا تسليحهم، بعدما نزعت الأسلحة من مسلمي المدينة فقط، وكنا ننسق مع رجال المقاومة في ردع هجمات الصرب على البيوت، لكن ماذا سيفعل المجداف في وجه أمواج تلاطمت على جسده المنتهك؟!

خيم السواد الذي كان خصما وعونا في نفس الآن، وصارت أضواء القذائف وحدها تلمع في السماء بين اللحظة وأختها، حتى سمعنا صوت الدكة والتي تلاها صراخ يدب بأوصاله في جدران المنزل الذي نحتمي فيه، قطعنا مسار الخطة والتي كانت تقتضي بأن نؤمن خروج النساء والأطفال خارج القرية لحيث تلك البقعة الآمنة! والتي احترنا في اختيارها، لأنها لم تكن معلومة لنا، وعلى أية حال، كان هدفنا خروجهم فحسب، ولكن تلك القذيفة التي ألهبت أجساد الأبرياء وأكلت ساقي "جيهاد" كانت خارقة لعهد الخطة، خرجنا نحاول إنقاذ ما يمكننا إنقاذه، وإذا بعيني تقع على يد لطخت بالدماء، وأصابع تتحرك من تحت الأنقاض، وبصوت تحشرج بأن يا الله! يا الله!

هرعت أضرب بقدمي كل ذلك الركام الذي هرم فوق جسدها النحيل، وبينما كنت أزيح عنها الأنقاض سمعتها تُحدثني بلغتها البوسنية "اترك الموت يرحمني".

طالعت عينيها، وإن لتلك النظرة شرخا عميقا في نفسي كما تفعل القنابل من عمق في صلب الأرض.

كل ما عليها هان عندي، واختل ميزانه مقابل كفة تلك النظرة، آه وألف آه، تمنيت أن أملك حينها قوة خارقة لأحطم كل الظلم وكل أعوانه، ولا أرى مكروها يصيبها أو يصيب من هم مثلها.

حملتها والدماء تسيل من جسدها متكتلة على الأرض وقلت في صوت زلزالي: سيارة، أحضروا سيارة.

كنت أقول عباراتي و أنا أهرول خارج المنزل، رغم القصف والخطر، لكن لم يشغلني وقتها سوى إنقاذ روحها.

انهارت شئوني ممتزجة مع دمائها، وتراصت الأجساد والجثث في نفس السيارة.

حركتها كمن يبحث عن الموت في حادث سير، لم أهتم بحجر تصلب في منتصف الطريق ولم أهتم بجدار لامس جنبات السيارة، ولم يفزعني أن ألاقي جنود الصرب في وجهي و أنا من خسرت سلاحي في ذلك المنزل من أثر

صدمة المشهد، ولم يرتح القلب يومها، وفي المستشفى الميداني رأيت الأبشع!

لم تجف دموعي إلا شحا من المنبع! وعوضها قلبي بكاء لحين ملء خزاناتها ثانية.

قالت الطبيبة بعربية ركيكة: سوف نضطر لقطع ساقيها.

وضعت يدي على عيني واستدرت في نصف دائرة، وكنت حينها أتمنى لو كان ذلك البتر في ساقي أنا، ولكنها الأقدار.

حمدت الله، ورفعت يدي أقولها له: يارب كل المستضعفين، يا قادر على كل قادر، يا جبار، اجبر خواطرنا بالصبر والسلوان وأعنا على ما نحن فيه.

تقطعت أنفاسي و أنا أدعوه مجهشا ببكاء لم يتوقف؛ ولم تتوقف معه حالات الإغاثة التي تزداد لحظة بعد لحظة، نقصت الأدوية، ونقصت عزيمة الأطباء المعالجين معهم، وزاد بنقصهم صبري وجلدي واحتسابي.

كان أحدهم بجواري يحاول تقبيل يدي لأعطيه رشفة ماء،أنظر إليه و أبكي لعطشه، ولكني ما استطعت أن أفعلها، لعلمي بأن تلك الرشفة سوف تفقده حياته؛ بسبب النزيف الذي حلّ بجسده. كنت أستغفر وأحتسب وأدعوا أن يسلم الله جسد تلك الملاك، ومعها هؤلاء الأبرياء.

بزغ الشروق بأمل يتجدد في صدري ككل يوم، وأنهت الطبيبة عملية البتر، وكانت هي تحت تأثير المخدر.

جلست على رأسها أطالع سماحة وجهها رغم انتشار الجروح فيه، أستمع لخلجات صدرها، ومع كل نفس خارج، أحمد الله وأشكره.

لقد فرضت الحرب على نفوسنا أن نتعلم أمورا لم تعلمنا مؤسساتنا التعليمية موادها، مهما بلغت تلك المؤسسات من خبرة أكاديمية، أمّا أهم تلك الدروس هو أن تبتسم في أشد أوقات الألم، تبتسم لأن إيمانك يؤكد لك بأن الأفضل ينتظرك على حافة الطريق الآخر، تبتسم لأنك على يقين من أن ليس هناك أسوأ مما رأيت، تبتسم لأن ابتسامتك بمثابة جيش جرار لابد أن يحطم بؤر اليأس التي تظهر في وجوه الآخرين.

تعلمت أن الابتسامة سلاح آخر لابد أن يحمله كل مجاهد، بخلاف الكلاشنكوف والقنابل والأسلحة البيضاء، والقوة العضلية، فبالابتسامة سوف تنزل روح الهزيمة في عين أعدائك وإن كنت خاسرا وكان منتصرا!

أسست في تلك اللحظة فلسفة خاصتي، وسياسة أوزع دستورها على كل المحيطين! و أبتسم.

أبتسم وأدحض الألم كامشا إياه لأسفل، أضغط وأضغط وأكسب مساحات بداخلي، وأضع رؤوسا إيمانية في كل مساحة أكتسبها.

أناجي الله سائلا إياه الخلاص، وأرى الخلاص نفسه يلوح لي، أبتسم وإن كان خيالا، والطمأنينة وحدها تحملني حيث الصمود! أيا كل حروب العالم شكرا، شكرا للقذائف والقصف والقنابل والرصاص، شكرا للحصار والجوع والبرد، شكرا للمهانة وكسر نفوس الرجال، كل ما تفعلونه، يزيدنا إيمانا بأن الله الذي لم ينصرنا، حتما سوف ينصرنا!

ابتسم.

جيهاد

الدموع تتجمع، وأعيد ترميم جدار اليقين، و أقاوم جيوش الانهيار التي تتكاتف لوأد عزائمي.

ثلاثة عشر يوما يزورني هاجس الرحيل، و أنتفض وأدعوا الله أن يبقيها.

إن قلبي ولأول مرة يتعلق وجود إحداهن، يا الله، يا قادر يا قدير، أرجو شفاء طهورا لها، المدد يا الله، المدد!

الموت يحوم بجواري، بين كل ساعة وأخرى، أرى وجع الفراق يرتسم على الوجوه، يحاصرني الهاجس، وتعتمل نفسي بأن أتهيأ لهذا المصير، أمزق شبح الهاجس، وأزور خيالا به نحيا و أنا أجتمع بها في بيت أساسه مودة ورحمة.

الرحمة التي قررت أن تنتشلها من دنيا الزيف والخداع والهمجية.

اختارها الرحمن عروسا في الجنة!

هكذا حدثت نفسي لمّا هرعت للطبيبة أخبرها بأن وضعية أنفاس "جيهاد" ليست على ما يرام، جاءتها مهرولة ووضعت يدها عند عنقها، وعادت تناظرني وهي تقول بعربية متقطعة مع إشارة بكفيها: خلاص.

خلاص وراحة.

تمتمت: إنا لله وإن إليه راجعون، ونظرت إليها نظرة وداع، وتقطعت أنفاسي والنفس مجهشة من البكاء، ثم صحت في الناس قائلا: يا قوم، يا أهل الدين والذمة، ألا من أحد يفتيني بصحة الزواج من شهيدة؟ أريد أن أعقد قراني عليها، قبل أن تدفن.

نظروا إلى صوتي المرتفع مندهشين، منهم من فهم لغتي ومنهم من لم يفهم شيئا، حتى جاءني عربيا يربت على كتفي وهو يقول بلهجة مصرية: شد حيلك يا أخا الإسلام.

أي شد هذا الذي يدعونني إليه، أنا أريدها زوجا وإن فارقت الحياة، أريد أن يتوج حبي لها تتويجا يرضي الله ورسوله، أريدها عروسا لي في الجنة بإذن الله.

أصيح مرة أخرى، ألا من أحد يفتيني، أدور حول نفسي دائرة كاملة و أنا أتساءل مع كل نصف دورة: ألا من أحد؟

لم يجبني أحد، وقد ظنوا أن الصدمة قد أذهبت عقلي حيث براثن الجنون، ولكني كنت في أشد لحظات تعقلي.

كيف سأعيش ما بقى من عمري محبا لها وهي لا تحل لي؟ كيف سأقابل ربي في كل سجدة، و أنا لا أعرف هل أنا مذنب بهذا الحب أم لا؟

أرهقني البكاء للحد الذي جعلني أصمت، بلا حركة ولا كلام، نقلوني لمعسكر الكتيبة، وكنت هناك أستمع لهمسات المجاهدين حولي، وأضع تعقيباتي في نفسي، وأجاهد مثابرة أن يلهمني الله الصبر، وأن يجبرني في مصيبتي.

أو يعقل أن يبدل المرء منّا سلوكياته بعدما وصل لمنتصف الطريق؟ أو يعقل أن تتبدل نظراتنا للحياة بعدما اكتملت وجهاتنا ومبادئنا وآراؤنا؟

تلك كانت معضلتي الحقيقية والإرث الحقيقي الذي خلفه رحيل "جيهاد".

صار قلبي لينا، بعدما زار الحب أطرافه، وظل يتوغل يوما بعد يوم حتى وصل لأعماقه.

صرت أستمع لنغمات أبي حمزة عن مشاعره و أنا مبتسم غير مفزوع بما يروي، صرت أشرد سابحا مع تلك اللحظات القليلة التي جمعتني بها حاضرة الذهن، و أبتسم لابتسامتها، وأشد على أزرها بالصبر، تبتسم هي ثم ترحل عني وعن عالمنا متغيبة مرة أخرى، أصبح التمني عندي محصورا في تلك المساحة الوقتية القليلة التي ستفتح عينيها فيها، وكان انتظاري لتلك اللحيظات كانتظار المعتقل لمعانقة هواء الحرية.

أهداني أبو حمزة حكاياته في حبه الجديد، وكيف أن تلك الزيجة أغلقت فجوات أحاسيسه التي عاناها مع زوجته الأولى والثانية، ورغم أنني كنت

أُشكك في نضج مشاعره، و أتيقن من صبيانيتها، إلا أنه كان يتحكم في انطلاقات خيالاتي لمجرد أن يبدأ حديثه عن العشق في خلسة من مسامع الجهاديين، حتى كانت تنبسط له مسامعي وتنفرد له مساحات التحرك بتحرر، ثم تعتمل بوصلة حواسي، و أبحر في معانقة خيالاتي.

تغير وجه الحرب في نظري، فكنتت أحرص على حياتي أكثر من ذي قبل، كل يوم يمر عليّ أقتص من روح صربي أشعر بسكينة تلتمع بها روحي، و أقول بعد أن أرى سقوط الجندي أمام عيني: هذا لأجلك يا "جيهاد"! لم تعد القضية وحدها من تحرك الغضب بداخلي، أرفقت ثأرا لروح جيهاد كرفيق أبدي لقضية النصر! كانت تتحير قناعاتي بين شهادة أرومها وأحصل على صك الجنة وأر افق زوجة تمنيتها في دنياي، وبين أن يمد الله في عمري يوما بعد الآخر، لأسجل هدفا جديدا في مرمى الصرب هتافه بكثرة الدماء المتناثرة!

أبرمت اتفاقية مع ذاتي، بعدما جاءني العرض الأول بأن أتزوج، بأن لا تتزحزح هي من قلبي وبألا أقبل بغير صفاتها!

قلت لما جاءني الشيخ نايك باقتراحه متنبئا لي بزوال الحزن والغم: أريدها قانتة، متعبدة، متبتلة، صابرة، ومثابرة! أريدها غير كاملة الأطراف، حتى تكون رفقتي لها ثوابا وأجرا في الدنيا!

ابتسم الشيخ نايك، وربت على كتفي ربتة أب ودود ينتوي تحقيق حلم طفله!

أومئت بابتسامة مزيفة، وقلت: شكرا لتفهمك.

ماذا لو تفهم الطرف الآخر من الحرب أن الحياة التي يتمنونها مبنية على ممات أناس كانوا يصارعون الحياة فتصرعهم! ومن قال إن مشاعر البشر تتساوى؟ أجزم بأن شعور من خاض ويلات الحروب يخالف كل شعور البشر، ويلات ترسخ في نفوسنا أنين ذا ترف!

الحزن أيضا يغار، يغار من تلك اللحظات التي تزورنا على غير اتفاق، تخيم رذاذ الفرحة على رؤوسنا لخبر ما قد يكون سعيدا، أو لفعل ما كنا نطمحه ونأمله، يتخلل تلك الفرحة نسيم الحزن، بأن نتذكر هؤلاء الذين كنا نتمنى أن يشاركونا أفراحنا، وهكذا يصبح الحزن سيدا على مشاعر المترفين.

لما عقدت النية و أبرمت الذمة، واستخرت المولى، وتوكلت على من لا يغفل ولا ينام، كان الحزن نائما في صدري، يصيح في وقت الذكرى فحسب، لكنه استفاق وثار في صدري حينما أمسكت أناملي بالقلم، و انتويت أن أضيفها إلى خانة الزوجة، صرخ الصدر وارتعشت ملامحي ولكني تظاهرت بالعادية و أكملت ما بدأته.

تهامست أنفاسنا وتهافتت أرواحنا، لما كنا نتشارك امتزاج الأوجاع، نظمت أمامي قصيدة هلعها، ومأساتها، وكيف فقدت ساقيها في يوم لم تنساه؟ تنتفض وتبكي، ثم أضمها و أقول: هيا أخرجي ما فيك من ألم، أخرجيه يا ليلى.

جمعت فتات الإيمان المتناثر على أطراف حياتها، وصلصلته بيقين مترسخ، وباحتساب نؤجر عليه، وعهد بأني سأصبح لها ساقين أفضل من ساقيها، وعونا وسندا في الدنيا، ثم تساءلت في نفسي: وماذا عن الآخرة؟

غبت لحظات مع هذا الحلم الذي أبتغيه، بأن تكون "جيهاد" هي عروسي الوحيد في الجنة، لا أريد لها شريكة أو جارة تشاركها فيّ.

الحلم، هنا يتوغل في صدري أكثر، كما هو حلم رفع الظلم الذي آمله، ونصرة الدين الذي أعمله، وتجمع الإخوان بدون ضغائن أو مكائد لتحقيق النصر،

نصر حقيقي وليس كذلك النصر المستعار الذي احتفل به أهل البوسنة لزوال الغمة و انسحاب آخر دبابة من أرض المدنيين، بعقد اتفاقية ظالمة! ولكن في ظلمها رحمة لحماية ألوف النفوس! ولكن لِمَ من البداية خضنا الحرب؟

تجمع القادة حينها والثورة تدب في أرض اللواء، أضرموا فتيل النار في جسد المجاهدين، الذين آزروهم، ولكني خرجت عن الجمع وقلت: لا

قلتها و أنا على يقين أن ما يعتزمونه سوف ينتهي بمأساة، ولن تؤول الأمور كما يطمحون، ولأجل طموحهم المزيف بغير حكمة ولا روية، أخرسني الشيخ "طيشة" بأن: اصمت، اصمت، اصمت.

قالها ثلاثا ور أيت رقاب الجهاديين تلتوي للخلف ليطالعوا ردة فعلي، والتي كانت صامتة ساكنة هادئة!

قلت: وفقكم الله لما تنتوونه رغم أني على يقين بما سوف تنتهون إليه.

خرجت تاركا اجتماعهم، وما عدت له إلا بعد تحقق تكهناتي على أرض الو اقع، ووصول الخبر إلى أرض اللواء بأن الكروات على أغلب الظن قد نالوا من قادتنا، وتم تصفيتهم.

تضاربت الأقاويل حينها عن صحة من الذي سرب نتيجة اجتماعنا والذي عقدوا النية فيه بالانقلاب على "بيجوفيتش وحكومته" وتضاربت أيضا الأقوال عن الجهة المنفذة لعملية الاغتيال، لكن ما لم يتضارب حينها هو أن أرض الجهاد -أفغانستان- قد جمعتنا كلنا، لإعادة الهيكلة وتجديد العزم وتوحيد الهدف.

الهدف هو أمريكا، واستهدافنا لمنشئاتها المترامية في أطراف البلاد الصديقة، كانت متعددة متكررة، بقصد إنزال الهزيمة بهيبتهم أمام العالم.

أصبح التدريب في المعسكرات على قدم وساق، أنهكت أجسادنا بين شراسة التدريبات ونوبات الحراسة و اجتماعات تأهيلية استعدادا لعملية على نطاق واسع، وكان التجهيز والترتيب لتلك العملية تدور أفلاكه في حذر مبهم وصمت تكتيكي، لا أحد يعلم حيثياته، إلا أن الجميع يتحدث عنها.

تكتمت تكهناتي عن أن تنطق، ولكني دونتها -كتابة- في دفتري! رفيق الحزن والسعادة، وخزان الأوجاع وذخيرة اليقين، كنت كلما تعاظمت على صدري الأوجاع أو أنين الذكريات، أفرغت فيه ما يؤلمني، أو طالعت فيه ما قد آلمني، وبين جدران ذلك المنزل المتهالك كانت تُكتب الكلمات ببيان مفعم بأهوال الماضي!

في كابول استقر بي الحال أنا وزوجتي رفيقة الحاضر والقادم -إن أشاء الله- وقد أنعم الله علينا "هي و أنا" بفن ترتيب الحروف، والشرود في عوالم اللغة والتأمل في علوم الكلم.

وما إن توسد الأسف مضجعنا، وحملت في نفسها شيئا أوجعها في سلوكياتي أو ردود أفعالي تجاهها، فتحت هذا الدفتر المشترك بيننا، و أفرغت فيه تفاصيل حزنها، بأنني فعلت كذا وكذا، كانت تبهرني لروعة بلاغتها وقدرتها العجيبة على اقتصاص حروف اللغة لخدمة أحاسيسها،

ثم إنني مرارا كنت أترك صلب القضية ومحور غضبها وأذهب مستمتعا بروعة عباراتها تركت بكتابتها أثرا عظيما في نفسي.

قللت ذات مرة: لِمَ لا تواجهينني مباشرة دون اللجوء للقلم؟

-لأنني لا أقدر على مواجهة عينيك.

ابتسمت وقلت:

-أتراوغك عيناي؟

-بل تأسرني، و أبتل عرقا إن اخترقتني النظرة.

-لِم؟

-لأني أحبك

اجتاحت كياني تلك الكلمة، وقطعت أوصال الماضي كالسيف، وأوصلت الحاضر، ولجمت المستقبل و أفسدت الخيالات، هزة عنيفة أحلت بي، وشعرت بتضارب الأحاسيس بين شوق موؤود يستحيل وصله وبين حاضر مفؤود لا يعرف الاكتمال.

أعترف بأني أعيش على ذكرى حب الثلاثة عشر يوما، لكني لم أقصر أبدا في حق ليلى! وأشهد الله أنني أجاهد قلبي لأزيدها حبا ولا أشعرها بنقص

يهزمها ويكسرها، ولأن القدر يخبئ لنا مفاجآت مخزنة لكي نعلم قدر النعم التي تحيطنا.

مرضت ليلى، وكان مرضها بمثابة مكاشفة بيني وبين نفسي.

كنت كل يوم أحدث الله جهرا وسرا بأن يشفيها، وأن يعيد لوجهها الضاحك ابتسامته، كنت أبكي رأسها كل ليلة في وقت غفوتها، وكنت أمسح على رأسها بين الفزعة والأخرى، و أتلو آيات الذكر الحكيم! كانت تخشى الأصوات العالية، التي تبث في روحها لهيب الذكرى، ويوم قصف بيتها واستشهاد أهلها، وضياع ساقيها، ولم يكن عجزها يمثل في نفسي أي غضاضة، لأنني أنا من اشترطت ذلك حينما انتويت الزواج، ولكنها كانت تبكي بحرقة بين كل حين، فأقول: هوني على نفسك، فتقول: لست مبتورة الساقين فقط، بل مبتورة الأهل والأقارب، فأقول: أتشعرين بأي تقصير مني؟

-لا والله ما رأيت أكمل من هكذا احتواء.

-الحمد الله الذي جعل لنا من بعضنا عوضا.

كنت أعلم أنها تشتاق ديرتها، حيث أهل الجنوب الأخيار، ولكن ماذا عساي أن أفعل، إن ذهبنا، التقطتنا معتقلات بلادنا، فقد حكم علينا أن نصبح مشردين في الأرض لأننا حملنا قضية لا ترضي أسياد العالم، ولاسيما قضية "نصرة ديننا"!

كانت تفوح رائحة مسك غريبة في جدران بيتنا، المترامي على أطراف "كابول" أنتفض! أهي النهاية؟ أو قد يحكم عليّ القدرثانية أن أتجرع آلام الفقد؟ أو قد...؟ أقول يا الله يا الله يا الله، لا ترني فيها مكروها، إن روحي تسكن روحها، لو قبضتها فلا تقبضها وحدها، بل اقبض روحي معها يا الله.

بحق حقك يا صاحب الحق.

تستفيق هي وتقول لي: يا أبا جعفر، إني أشتم رائحة الموت يخيم على رأسي، ادع لي يا أبا جعفر، أدع لي.

أعتصر و أبكي وأمسح على شعرها، و أقول: يا عزيزة على القلب، يا ساكنة الروح، إنه رحيم بك وبيّ.

ما عدت ناكرا ونافيا رائحته عنها، إني صرت أشتم نفس تلك الرائحة مثلها.

للموت رائحة يحفظها من هم أمثالنا ممن تجرعوا أهواله وممن تذوقوا ويلاته، ثم التجأت للقبلة وسال الدمع أمام رأسي، وخالط أرض زاوية الصلاة، وتبللت لحيتي و أنا على سجادتي لم أقم عنها، أناجيه الرحمة و أبكيه العفو، ثم أقوم من سجدتي وأشق النظرة عليها، وأطمئن على حالها صدرها يعمل بأنفاس الحياة، أحمد الله أنها مازالت باقية، ثم إلى دفتري الذي كان الملجأ الثاني، وبدأت أكتب لها:

هوني على نفسك.

-هوني على نفسك مرارة الوجع ولتخبريها أن الحياة تختبر فينا الصبر والجلد واليقين.

-يقين يستبئس بعظمة رحمته، ويجعلنا نهرول خاشعين متضرعين منيبين عازمين.

-لا أحد يشعر بما في قلبك من شظايا تلهب عقلك فكرا، وتشعل جسدك نارا.

أعلم ذلك يا صغيرتي، وأعلم أنّك تقفين على عتبات الألم الروحي أكثر من ذياك العضوي.

-دعيني أمزّق تلك الخيوط الفكرية التي تتأصّل في عقلك فأقرأ عند قلبك الرقيق قصيدة عشق علّه يبتسم، ثم تعود سيول الدموع جارفة في مجراها على خديك.

-الآن أقسمت عليك بأن تجفّفيهما، فاستعيني برحمته التي سبقت أقداره فهو الذي كتب لامرأة عاقر أن تصبح أمًا، وكتب السلامة لموسى، وعزّز من يوسف فأصبح عزيز مصر.

-أتعتقدين يا صغيرتي أن تلك الآلام اللعينة ستصبح عسيرة على رب يسمع أنينك فتسبق الرحمة كل شيء؟

-ها أنا أقرأ عليك آيات من ذكره الحكيم، قال تعالى في سورة لقمان: "يا بنيّ إنّها إن تك مثقال حبّة مّن خردل فتكن في صخرة أو في السّماوات أو في الأرض يأت بها الله إنّ الله لطيف خبير"

-أرأيت يا صغيرتي لطفه، وكرمه، ورحمته؟

-أتخافين الموت؟ تالله إن الموت يخاف الأقوياء، فباقية أنت بيقينك، وعزتك، وشموخك، وحرفك الوامض.

-عزيزتي وصغيرتي ذات القلب الرقراق:

لا تجعلي أصابع اليأس تمتد لساعدك فتصافحها، ولا تتركي أنّات الحزن تراود جسدك فتملكه.

-كوني دائما كما عهدتك، ذات عزيمة صلدة وإرادة شاهقة بأمل البقاء.

-ها أنا أقرأ السلام عند قلبك للمرة الثانية وأحمّله أمانة القصائد بشدوها العاطر، وأحارب التردد الذي يستعصم في بيت الندم، لتأسرك لعناته بين لين منطوق، وأسف ممنوع.

-دعك من بعضهم، وكلهم، وكل بعضهم، ودعك من مغارات الفكر، ولهيب الأشواق، ودعك من وصلات اللوم ولعنات الضمير! فكلها أمور تندثر حينما ترفع الأيادي مهدهدة بعناق الدمع الراجي، الطامع في كرم المغفرة.

-أقسمت على قلبك أن يهدأ؛ فكلنا آثمون، وكلنا مخطئون، وخيرنا التوّابون!

-أو تعرفين؟ أو تعرفين أن جرعات الألم التي تتخلل أساريرك تعني أن روحك الصافية ماضية في طريق الحق، وأن نفسك الهادئة لا تعرف للخطأ مرقدا.

-استعذبتني بكلماتك أياما كانت تتطاير خلف إطارات الشاحنات، في طريق يابسه تخضر، وملحه تعذب!

-ألا من شواهد أخرى تثبت لك بعلم الوصول أكثر من تياك؟

-نحن الذين نسطر تاريخا بعبق حروفنا، لا نخاف! ألا تبا لبصيلة الخوف التي رأيتها تحت مسام بشرتك الرقيقة، فأنهكت جسدا أنهكه الفراق.

-اذكريني عند قلبك وقولي له، يشهدك كلماته في وقت الاشتياق!

طليعة الاستشهاد

تتبدل الأيام وتزهق أرواح الأعوام، وينقضي واحد ويجيء غيره تشيخ الوجوه وتشيب اللحى، ويبقى أبو حمزة على حاله يسائلني:

-ألن تفتت بقعة الفضول التي تربعت في رأسي وتقول لي ما هي العصفورة الأولى؟

أبتسم و أقول: نعم لن أفتتها، ثم إنه عيب في حقك يا رجل، أنت الآن على مشارف أن تصبح نائبا لقائد الكتيبة، كما أنك رجل ذو خبرة حياتية عتيقة، بالله كيف لم تعرفها إلى الآن؟

يعض على أسنانه متظاهرا بالغيظ، تفضحه ابتسامته، ثم يهز كتفي ممازحا إياي وهو يقول: اللعنة على دهائك، ثم يقهقه وهو يرتمي فوق صدري ويقول: أشهد الله أنني أحبك.

أبتسم و أقول: أحبك الله الذي أحببتني فيه يا رجل.

ونظل هكذا بين مزاح ونقاش طول فترات الراحة، يقص عليّ ما أحاطه من فزع أو مخاوف، و أقص عليه مأساتي ومطاردة الذكرى لقلبي، وقد حطت صداقتنا وقربنا لبعضنا في عيون الآخرين نوع من أنواع الترقب،

وكان أكثر المترقبين هو ذلك الرجل الأربعيني، والذي لطالما شعرنا أنا وجامع أنه يريد أن يتخلل بيننا، ير افق رفقتنا ربما، أو أن له نو ايا أخرى لم نتبينها إلى الآن؛ فبدون أية مقدمات نجده جلس بجوارنا، يلقي السلام، ثم يبدأ في فتح الحوارات أو الدخول مباشرة فيما كنا نتحدثه، ينظر له "جامع" ثم يعادوني بنظرة متعجبة مستنكرة وكأن لسان حاله: ماذا يريد ذلك الأبله؟ ألاحق "جامعا" قبل أن يعنفه بكلمة فظة، وألطف الأجواء وأرحب بوجوده:

أهلا شيخ "توبة" أنرت مجلسنا يا رجل.

يبتسم وكأنه لم يجد في فعلته شيئا غير مألوف: مجلسكم مستنير بصدح وجوهكم ور ائحتكم الزكية.

يعض أبو حمزة على أسنانه: ما عليك زود يا شيخ "توبة".

ثم يرحل بعد أن يشعر بأن الأرض ضاقت عليه بيننا، وأن الألفة التي يتمناها لم تحل بنفوسنا تجاهه.

ويبدأ أبو حمزة بقرع طبول المؤامرة: أشعر أنه عصفور من طرف الشيخ "طيشة".

أهز رأسي ضاحكا بقوة و أنا أضرب على كتفه قائلا: الله يلعن شيطانك يا رجل، كف عن المؤامرة التي تسيطر على عقلك، كل ما هنالك أن الرجل

لم يجد صحبة طيبة في المخيم، وربما ظن أننا أخير الناس في نظره، وحاول التقرب.

يغمض أبو حمزة عينيه ويهز رأسه مستنكرا كلامي ومؤكدا باستنكاره صدق نبوءته هووصحة تكهناته: سترى يا أبا جعفر، سترى أنني لدي بعد نظروفراسة زائدة.

أضحك لمدحه نفسه: طيب الله خاطرك يا فارس الفوارس.

ثم ينتفض فجأة ويقفزكالبهلوان قاصدا إضحاكي ويقول: ألم ترى تلك الحركة الغريبة التي يفعلها بسرواله كلما قام أو جلس أو اعتدل، يرفع سرواله لأعلى، كل مرة أراه يفعلها أنفعل في نفسي و أتمنى لو أقبل رأسه قائلا له: تالله إن سروالك لم يسقط يا رجل لم ترفعه؟

أضحك وأضحك و أقول: لعن الله شيطانك مرة ثانية، كف عن اغتياب الرجل يا رجل، ودعنا نكمل ما بدأناه.

يصمت قليلا ثم يعاود ما كنا نتبادله من نقاش، ولكني كنت بالفعل أرى أن ذلك الوجه الممازح قلقا نوعا ما من فضول الشيخ "توبة" وتكرار فعلته في اقتحام مجلسنا، كنت أحاول دائما أن أخمد تلك التكهنات في صدر أبي حمزة حتى يتبين لنا الخبر الحق والخفايا المدسوسة.

الشيخ توبة، حل مؤخرا على معسكرنا بوصاية من "خالد شيخ محمد" ومن ثم لم يسأل أحدنا عن أصله وفصله، و انضم مباشرة إلى الدورة التأهيلية التي تعقدها القاعدة للأعضاء الجدد، وخرج علينا بذلك الاسم غريب التفاصيل "توبة"! وكلما سأله أحد منا، كان يرد بأنه اسم عائلته، الذي لم يكتب في هويته الوطنية لأنه الاسم السابع أو الثامن على الأرجح، وأن الحكومة المصرية تكتفي بأربعة أسماء بحد أقصى، وهو ما أثار في نفسي نوعا من الريبة والشك، ولكني لم أوضح ذلك في كثير من الأحيان.

لم تختلف ملامح الشيخ توبة عن ملامح "جامع" كثيرا حتى إنني كنت دائما أكررها على مسامع "جامع" حينما كان يشكك فيه وفي نو اياه بأن: يا رجل لماذا لا تقبله وهو شبيهك بشكل متقارب جدا؟ ظننتك سوف تحبه قلبا وقالبا.

يثور أكثر أبو حمزة قائلا: بل إن ذلك ما يثير اشمئزازي أكثر، بالله كيف ترى حالك مميزا وهناك من يشبهك بهذا الحد!

أضحك قائلا: في تلك الجزئية معك الحق، أنا لو اشتريت معطفا ووجدت غيري يرتديه، ما قربت منه ثانية.

يقفز أبو حمزة وهو يشير بأصبعه قائلا: أرأيت؟ فماذا عن وجهك إن تكرر بهذا الشبه؟ أو أقطعه يا أبا جعفر؟

أضحك ويضحك، وتنقلب جلستنا كلها إلى مزاح.

ولكنني شعرت أن لذلك الشبه شيئا مقصودا في نفوس القادة، إلا أن أمره لم يتضح ليّ إلى الآن! وكعادة مصنع القرارات، محاط بالغموض.

في نهاية أيلول ٩٩ وقع الاختيار عليّ وعلى أبي حمزة من ضمن القائمة المبدئية التي سوف تنفذ عملية مهمة على نطاق واسع، نقتص فيه من هيبة الأمم المتحدة، ونهزكيانها الدولي، ارتجف جسد أبي حمزة بجواري، وشعرت برجفته تهزكياني، بينما التف حولنا الإخوان يهنئوننا على زفاف آت للجنة، ومن هنا ينتحر الرفض عند أقدام الشجاعة والشكيمة.

إني لا أخشى الموت، ولا يهمني أن أكون بطل تلك العملية وأخلد في جنات العلى، ففي الآخرة كان دائما ملاذي، لكني أستشعر ضجر أبي حمزة وإن لم يعلنه إلا الآن، وأعرف بأنه سوف يفيض بما في داخله بعدما ينفض الجمع، وتتوقف التهاني.

كان الرجل الثاني في القاعدة، الدكتور "أيمن الظواهري" هو من يشرف على تدريباتنا نحن المجاهدين في معسكر الفاروق، وهو من يرفع التقارير للشيخ ابن لادن، ثم تعقد جلسة مشورة بين مثلث القرارات "ابن لادن والظواهري، وخالد شيخ محمد" ثم تصدر الأوامر والتعليمات باختيار أعضاء الخلية المنفذة للهجوم، وذلك في كل مرة ننتوي فيها هجوما

يقتص من الأعداء، وكنا دائما نتساءل، متى سيأتي ذلك اليوم الذي سيقع فيه الاختيار علينا، ونستشهد فداء للدين وللقضية.

لكن في تلك العملية كان لأبي حمزة رأيا آخر، وهو أن الاختيار لم يكن متأتيا من مبدأ الاستحقاق والجدارة وتولية الأخير، بل إن هناك مؤامرة من نوع خاص.

قلت في اندهاش!: أي مؤامرة تقصد؟

-مؤامرة الإزاحة يا أبا جعفر.

-أتقصد...؟

قلت عباراتي وكنت حينها أشرد في طريق جديد لم تعرفه عزيمتي السابقة، وإن هذا الطريق هو "ليلى"، لمن سوف أتركها، وهي مبتورة الأهل والساقين؟ أسوف أعيدها إلى الديار-السعودية- لمن سوف تلجأ؟ لخالها؟ أم لعائلتي الذين لا يعرفون عني شيئا منذ أعوام وأعوام؟

جلست أحدث نفسي بما أنا فاعله، وقد اعتصر صدري ألما لم أنا مقدم عليه، لأجلها وحدها، لا لأجل حياتي التي ما عادت تهمني سوى لرعايتها وفقط.

ليلى ستفقدني كما فقدت والدها، والدها الذي كان أستاذا جامعيا في إحدى جامعات البوسنة العتيقة، ولأنه لم يفضل تشتت الجمع؛ قرر أن

يصطحب عائلته بأكملها إلى أراض البوسنة، ولم يكن يعلم حينها أنه يسوق تلك الأسرة إلى حتفها الأخير، إلا ليلى التي ظلت حية بدون ساقين، وتصبح في يوم وليلة كل ما لي وأصبح أنا أيضا لها كل شيء!

يناديني أبو حمزة، ويقول حين شرودي: يا أبا جعفر أجبني، ماذا تتوقع؟ أتراني محقا؟

تنفست قليلا وقلت: لو أنني أعطيتك الحق في نظريتك، سوف أعطيك إياه لسبب واحد، وهو: كلانا معيل، ورب لأسرة، وإن اختيار القادة لا يقع على أصحاب الأسر والمعيلين إلا في أضيق الحدود، والتي يصعب تنفيذها بدونهم.

انتفض هو كعادته: أرأيت؟ إذن معي حق، هناك مؤامرة إطاحة بنا، هناك خطة لإزاحتنا، خافوا من تكاتفنا، وخافوا من قوتنا و أننا سوف نصل في ذات يوم.

أشرت له بأن يهدأ، وقلت: هون على نفسك الصراع، ودعنا نرى ما في جعبتهم في الأيام القادمة.

ولكن دعوتي بالهدوء لم تلق قبولها عند جامع، أصر على أن يقدم اعتذارا عن تنفيذ العملية، لاعنا كل مقاييس الشجاعة ومعاييرها.

أعرف جيدا أن جامعا لا يهوى الموت ولا يطيق سيرته، وأعرف أنه وجد في استنكاري متكئا يعينه على الرفض، رغم أن الأمر سيصير حديث المخيم بأكمله، وربما سينعتوننا بأبشع صفات التخاذل والخوف، ولكنني قررت أن أسير الطريق لآخره، وألا أعترض أو حتى أظهر رفضي لتنفيذ العملية و أقنعت جامعا بأن يفعل كما سأفعل، و انفصلنا عند ذلك المفترق الذي يفصل طريقينا، اتجه هو لبيته، و اتجهت أنا لبيتي. وكانت حينها "ليلى" قد تماثلت للشفاء، بعناية إلهية، واختفى المرض منها شيئا شيئا، عادت الابتسامة للبيت وأصبحت كما سابقي، أجهزلها كل أغراضها التي ستستخدمها لأعمالها المنزلية، ولم تمل هي المحاولات، باستخدام المقعد المتحرك، وتقوم بأعمال الطهي، والنظافة ما قدرت عليه، وأعود لأجد البيت قطعة من الراحة.

أسند رأسي على صدرها، وأحكي لها عن ما عانيته في يومي، ثم تقص هي ما دونته من كتابات وما طالعته من قراءات، في أوقات فراغها.

نفتح باب نقاش ينتهي بابتسامة وقبلة فوق الرأس، ثم نخلد لنوم هادئ، ولكن هدوء كل الليالي هجر مضجعنا في ذلك اليوم الذي أخبرتها فيه بأن القيادة اختارتني لعملية استشهادية، فزعت وسقطت دموعها دون أن تنطق شفتاها ولكنها ارتعشت، وسرت الرعشة من شفتيها إلى باق جسدها، قمت من جلستي أضمها، وأخبرها باحتسابها في الدنيا الذي

سننال أضعافه في الآخرة، نهرتني ولأول مرة، نهرة أفزعت كل ليالي، إذ قالت:

أنا لست بعروس جنتك يا "دهام"، لست أنا، أنا لا أملك منك سوى جسد أرتمي في ضلوعه يوميا، وهو ينبض باسم امرأة غيري، أنا لا أملك منك شيئا سوى ما في تلك الدنيا.

ارتمت نظراتي على الأرض و انكسرت العين، أمام وحش المفاجأة، كيف أنكروكيف لا أنكر؟

صمتت الجدران معنا، حتى قاطع صخب صمتنا المعتمل في نفوسنا صوتها وهي تقول: لقد قرأت في دفترك الخاص ما كتبته لها، لـ"جهاد البوسنية" وقرأت أمنياتك وحبك لها، وربما كان هذا الوجع سبب في انتكاستي الأخيرة، ثم بالله قل لي: منذ متى والقيادات تختار رب الأسرة ومن يعول؟ منذ متى وذلك يحدث؟ قانون القاعدة أنكم للحروب ولستم للعمليات الاستشهادية يا "دهام".

نطق لساني وهويتهته: تالله ما نعرف، تالله إن ذلك أثار دهشتنا أنا و أبي حمزة.

قاطعتني: أبو حمزة أيضا معك؟ إذا هو اتفاق بين الرفقاء لكي يستشهدا سويا فيجدا ملذات الآخرة سويا!

قلت مستنكرا: استغفري الله، إن بعض الظن إثم.

- حقا، فظننتك نسيتها، وظننتك أحببتني، ولكن كما قلتها، إن بعض الظن إثم.

- ليس كهذا الظن يا ليلى.

لم ترد عليّ وجرجرت عجلات مقعدها وراحت ناحية غرفتها، وأغلقت عيني بدون رائحة صدرها لأول مرة منذ يوم زواجنا. وكفراق صدرها قد أمرت بأن أفارق لحيتي، لأن العملية التي لم تقترب التنفيذ، تحتاج أن نتجرد من مظهرنا الإسلامي حتى لا نثير الشكوك، وحتى نتعود على مظاهرنا الجديدة، لابد أن ننفذ الأمر قبل إتمام العملية بمدة!

امتثلنا، رغم أن جامعا كان قد أوشك على الانفجار، ولكني هدأت من روعه، واعدا إياه بأنني لن أستسلم، ولكن في رأسي خطة ما، وليجعلني أديرها بحكمة.

امتثل لرغبتي بعدما صب غضب زوجته في صدري، ونقل عويل النساء وبكائهن بحرفية بالغة، وكأنه أخفى تحت جلده آلة تسجيلية، تعيد صياغة ما قالته له زوجته بصوته هو.

لم نظهر أي غضاضة في تقبل الأوامر، وتظاهرنا بسعادتنا حتى لاح في الأفق من بعيد طيف الشيخ توبة، يأتي علينا، غمزني حينها جامع وهو يقول: ترى ما ناقصني غير هذا السروال.

كتمت ضحكاتي وقابلت الشيخ توبة بالسهل والترحاب،

رفع سرواله، ثم قال موجها حديثه لجامع:

-كنت أراك في منامي طيلة الأسبوع الماضي و أنت تفتح لي بابا، ترى هل ستستقبلني بنفسك في الجنة؟

رد جامع بغضب اقترب من السخرية: تراه باب سيارتي تلك "وهو يشير ناحية سيارته". ثم أردف وفي الحقيقة لم أتأكد بعد، هل كنت أفتحه لاستقبالك أم لدفعك منه!

نظر له الشيخ "توبة" نظرة وعيد وهو يردد مع حركته للخلف معتزما ترك مجلسنا: بارك الله فيك، بارك الله فيك، بارك الله في دينك، بارك الله في أمك بارك الله في دين أمك.

اجتماع لا يتفق

- أوتظن أن ذلك الجيش الذي هزم أسطورة "السوفييت"، التي تسيّدت العالم، سيفشل في هزيمة الأمريكان؟ نحن عصبة وسوف نزل بهم أشر هزيمة ونجعلهم عبرة لمن لا يعتبر.

-إنهم الأمريكان يا شيخ بن لادن، الأمريكان، وليسوا كما تظن أننا سنهزمهم بتلك السهولة!

-إن من هزموا "السوفييت" بتاريخهم المعروف بانتصاراتهم-"السوفيت" في أوربا على الناتو، وعلى الصين في سهول "منشوريا" سوف يهزمون الأمريكان وغيرهم. المهم هو الإيمان.

كانت تلك العبارات البسيطة التي سربت لنا من اجتماع ابن لادن بقادة التنظيمات الجهادية المسلحة، وعلى رأسهم طرفي الحوار الآخر مع ابن لادن "الملا عمر" زعيم طالبان، الذي رفض تأييد ما ينتويه ابن لادن بدون الإفصاح عن تفاصيل العملية الهجومية، وقد ساند "الملا عمر" في موقفه زعيم التنظيم المسلح في ليبيا "نعمان بن عثمان"، وعلى الوجه الآخر حظي ابن لادن بتأييد "المتطرف قلب الدين حكمتيار" زعيم الحزب الإسلامي الأفغاني، وانتهى اجتماع ابن لادن مع التنظيمات الجهادية

بالفشل، وبدأ يواجه خطر التراجع عن تنفيذ العملية، والتضحية برجاله الذين خطوا خطوات مهمة في إحراز الهدف.

وصل لجموع المجاهدين تلك الارتباكات التي دبت بأوصالها في جسد العلاقة بين القاعدة وطالبان، لكننا مازلنا نحظى بالرعاية الأفغانية وتوفير الحماية لنا، لكن أصبح شيء ما مرتبكا، وكلنا استشعرنا ذلك، وتوقعنا أن العملية التي جهزنا إليها الشيخ ابن لادن سوف تلغى بالفعل! لكن الخبر الأكيد مازال في طي الكتمان، وقد حدثني كثيرا "جامع" عن أية معلومات قد تكون تسربت عن العملية، لكني بالفعل لم أكن أعلم عنها شيئا سوى هذا الأمر اللعين بأن نحلق لحانا، والذي جعلني لا أقدر حتى على مطالعة وجهي في المرآة! وما زلنا أنا وجامع نتلقى تدريبات قاسية جدا، وينضم إلينا بعد الشهر والآخر نفر جدد يتم وقوع الاختيار عليهم لمعاونتنا في تنفيذ الهجوم، ذلك الهجوم الذي طال انتظاره، وشغل بالنا جميعا عما تنتويه رؤوس القادة، لكن دونما أي تفسير لتساؤلاتنا التي أصبحت كالخبز العطن، لا فائدة منه ولا نفع!

أصبحنا تسعة عشر، وتنقلنا بين معسكر وآخر، وكلما تخطت مدة التدريب حدود الوقت المتعارف عليه، كلما زدنا يقينا بأن تلك العملية ستقصم ظهر أمريكا، ويزداد الحديث وتتعالى الإشاعات بين جنبات المعسكرات، والقيادة تشاهد صامتة.

في تلك الآونة وصلنا رد إلهي عن دماء إخواننا المجاهدين والبوسنيين الذين استشهدوا برصاص الصرب ومجازرهم، إذ أن الطاغية "سلوبودان" قد سقط ويواجه أحكاما بالجملة، في محكمة لاهاي الدولية قد تعرضه للإعدام، فيزداد يقين المجاهدين المرابطين في المعسكرات بأن الطاغية أمريكا مهما تجبر بأسها، إلا أنها ستسقط في ذات يوم، وعلقت الأماني بأن تكون تلك السقطة بيد المجاهدين المختارين للتنفيذ، جراء تلك العملية موشكة التنفيذ، وإن لميعادها في قلوب البعض، كشوكة تقف في مواجهة القلب، فما إن تم الإعلان حتى غرست هي في قلوبهم.

ليلى، وغالية، زوجتي وزوجة جامع، وجامع نفسه، جميعهم ينتظرون بخوف وترقب سماع ذلك الخبر، إلا أن جامعا شعر بعد مضي الشهر بعد الشهر أنه تورط بالفعل في التنفيذ دون استنكاره لأسباب اختيارنا،

قال لي بعد مضي سبعة عشر شهرا من يوم الاختيار:

-أو تظن أنه بإمكاننا التراجع بعد أن تلقينا كل تلك التدريبات والتجهيزات؟

ثم صار يتصايح: أنت ورطتنا يا أبا جعفر.

ثم عاد يكررها وهو يضرب الكف فوق الكف:

-ورطتنا وضيعت أسرنا.

رأيت في عينيه دمعة محتبسة، والتفت إليّ يناظرعيني في عينه ويقول:

-أولادي، وبنتي، وابني المنتظر، وزوجاتي "خلود وبدور وغالية" أين سيذهبون يا أبا جعفر؟

ثم صار يطقطق في أصابعه ويتمتم: يا ليتني لم أطع رأيك، ويا ليتني اعترضت يومها.

صرت صامتا تماما في مقابل ثورته التي قد اشتعلت بالفعل، ثم قلت بعدما صمتّ لبضع ثوان:

-أنت يا أبا حمزة لا يعتمل بداخلك كل ما تسوقه لي من مشاعر، كل ما أذاك بحق، هو أن القادة قرروا أن يضحوا بك بدلا من أن تجد بين جموعهم مكانا على مقاعد القيادة، عوضا على أنك لا تطيق سماع سيرة الموت.

نظرلي نظرة، لم أنسها ما حييت، وكأن لسان حاله يقول: أوكشفتني لهذا الحد؟ أولهذا الحد أنا مفضوح النية ومكشوف الغرض؟

ثم عاد ظهره من اتكائه، وقال: لا يا أبا حمزة، إني للشهادة أرغب و أتمنى، لكني أعول، أعول، أعول يا أبا حمزة.

نظرته بمثيلتها، و إني لكاشف كذب عباراته، ومطلع على ما يخفيه، ولم أنطق.

كذلك أصبح الصمت مخيما على مضجعي طيلة تلك المدة بعدما قرأت ليلى خواطري وأمنياتي في أن تكون "جيهاد" زوجا لي في الآخرة، ودعائي بذلك في كل صلاة، لم أعد أقدر حتى على إصلاح ما أفسده قلبي متعاونا مع قلمي، وصرت أقرأ ما تكتبه من شكوى ومناجاة، وتلطمني صفعاتها الحسية، وأزداد صمتا على صمتي، وللصمت فوائد عديدة، أولها وأهمها: أننا أحيانا نفقد لذة الكلام، وما نجد منه نفعا أو فائدة، ثم نلوذ إلى الصمت محتميين بمملكته، تلك المملكة التي احتمى بها أيضا "الشيخ توبة".

ما عهدته كما كان، أصبح قاتما، صامتا.

تساءلت مرارا: أوفعلت فيه قرارات القيادة باختياره معنا لتنفيذ المهمة القادمة كما فعلت في نفسي ونفس جامع؟ ولكني أعرف أنه بلا عائلة، مشردا في الأرض، كما كان يقولها دائما لنا، وأن عداد عمره لم يحتسب بعد، و أنه لما انضم لصفوفنا، كان بغية ألا يخسر آخرته كما خسر دنياه!

ظلت شخصية "توبة" في نظري هي الأكثر حيرة، والأعظم غموضا، إني وإن كنت لا أهوى الأضواء والضوضاء لكني أستمتع بتحليل النفوس واختراق صلبها، لرؤية ما فيها من الداخل.

في الداخل تتلوى الحقائق، كما في داخل تلك الخيمة التي تجمع الرؤوس الثلاثة وأضلاع مثلث القوى، ورغم أن صحبة الظواهري لابن لادن، كانت في علانيتها مبدأ الولاء والبراء، إلا أن صغيرهم "خالد شيخ محمد" كان يعتمل العصيان على ملامح وجهه، وكنت أراها، ولست وحدي، بل كلنا كنا نستشعرها في تضارب الآراء أحيانا، أو ازدواجية القرارات التي كانت تذاع بشكلها الأخير لمعاكسة تيار خالد شيخ محمد حتى اختفى تماما عن وجوده شبه الدائم في مركز القيادة، وكنا نعلم علاقته القوية ببعض الدبلوماسيين الذين يشكلون عجلات تحريك الأحداث في الشرق، وأغلب الظن أن الإطاحة به، من مثلث القيادة في القاعدة تأخرت لذلك السبب، وهو أنه يملك مفاتيحا كثيرة تسهل تنفيد عملياتنا بكل سهولة ويسر تحت غطاء دبلوماسي عالي المستوى، وقد استطاع بحرفية تامة أن يتلاعب بمفاتيحه تلك على كافة الأصعدة. وأهم الأصعدة كانت في هندسته وإخراجه لتنفيذ بعض الهجمات أهمها على الإطلاق، تفجيره لسيارة مفخخة في مبنى التجارة العالمي في ٩٣، ومن ثم وضعته أمريكا على قائمة المطلوبين ولكنها فشلت بالطبع في الوصول إليه، فهو الأعلى حصانة والأكثر دهاء! وللدهاء مغارات وكنت أراه حافظا لدهاليزها.

أما الدهاليز التخطيطية، والحيرة الحقيقية بدأت عندما صدر لنا القرار في الانتقال إلى "وزيرستان" وأن ننتظر الأوامر هناك. تحركنا جميعنا في صباح الثالث من أيلول للعام **2001**، وقد أعلنها جامع صراحة في أذني:

-لن أكمل معكم العملية يا أبا جعفر، أتفهم؟

نظرت له وقد تناثرت أسهم النظرة نتيجة هزة السيارة التي كنا نستقلها وتسير بين حجارة الجبل، ثم نظرت للسماء.

عاودني: أنا حتى لم أقل لزوجتي، على الأقل كنت أودعهم.

لم أعره أي انتباه، ما زلنا لا نعرف ما سوف نفعل، وصدقا كنت أختزن طاقات الرفض والاستنكار في صدري، وكنت أنتوي أن أفرغهم جميعا في رأس القرارات إن جاءنا الأمر بالتنفيذ، لكني كنت عازما على أن أفهم بما يفكر هؤلاء؟!

وصلنا للمكان المخصص لإقامتنا، وقد تقسمنا لثلاث مجموعات، افترقنا على أعتاب المدينة، وكان برفقتي جامع وتوبة وأربعة من المجاهدين العرب وواحدا ماليزيا، و افترقنا عن باقينا التسعة عشر، وقطنا شقة في الطابق الثالث داخل بناية قديمة، وقيل لنا انتظروا الأوامر والتعليمات.

استعد الإخوان للقاء الشهادة، وحلقوا وأكثروا من صلواتهم ودعائهم، بينما كان أبو حمزة وأنا على صفيح ساخن، ولم أفصح عما يدور في خاطري له، لكي أرى ما عنده، ففي الشدة تختبر معادن الرجال، واعتبرتها منطقة فاصلة بعلاقتي به، إما يفشل أو ينجح كما نجح التنظيم -في السابع من أيلول- من تسجيل انتصار يحسب لصالحنا.

وصلنا العلم والخبر والبشرى، بأن القاعدة قد نالت من "أحمد شاه مسعود" قائد التحالف الشمالي، والذي كان يمثل أكبر عقبة في حلق طالبان بعدما فجر جهاديان نفسهما في حضوره، وكان أحدهما تربطني به علاقة طيبة جدا.

"رشيد آل بوراوي، ودهمان عبد الستار"، صار التكبير بيننا، ورغم خفوت صوتنا، إلا أنه كان يزلزلنا، وابتسم حينها جامع بعد أربعة أيام من الغضب الكامل، وقال: أتظن أن تلك هي العملية الكبرى التي كان القادة يخططون لها؟

يقول عباراته وأنا أعلم ما يدور بخلجاته، هو يتمنى أن نقوم بعملية لا استشهاد فيها، وأن تلك العملية في النيل من "مسعود" هي التي كلفنا بها.

ابتسمت قائلا: أظنك في حاجة للقلق أكثر، ربما نحن جزء من الخطة الكبرى التي بدأت باغتيال "مسعود"

طمس وجهه بالخوف أكثر بينما أتضاحك أنا على ردة فعله الصامتة لأول مرة دون هرع وفزع.

لكنه فزع بحق في ظهيرة التاسع من أيلول للعام **2001**، عندما رأينا بأم عيننا في التلفاز، طائرتين تخترقان صلب بناية مبنى التجارة العالمي، والعالم كله يقف على قدم وساق! ولم تمر سويعات على توالي الأخبار حتى جاءنا الأمر من القيادة بأننا قد نفذنا مهمتنا على أكمل وجه، و أنه يتوجب علينا العودة إلى قندهار! ثم المرابطة هناك لعدة أيام لحين تلقي الأوامر بالرجوع إلى كابل.

خيم حينها الصمت على وجوهنا، وحاولنا أن نفهم ما خطط له القادة؟ وما تؤول له الأحداث؟ وأي مهمة تلك التي نفذناها بدون أن نبرح مكاننا؟ حتى جامع، تأثرت فرحته بأنه حر على قيد الحياة بسبب صدمته بما فعل فينا، و أننا كنا جزء من التخطيط للعملية، لكن كنا هذا الجزء التعتيمي أو غطاء للتمويه ليس أكثر.

فهمناها بعد أن ربطنا الأحداث ببعضها، لكن الاستنكاف كان سيد الموقف، وقد اختلفت حدته بين هؤلاء الذين سلموا لخروجهم من الدنيا والتحاقهم بآخرة النعيم في غضون ساعات، وبين من تمسك بحياته وملذاتها مثلي أنا وجامع، وأغلب الظن توبة "الصامت".

صامت جدا حتى في توضيح ردة فعله مما تفهمناه للدرجة التي جعلتا جامع الذي لم يكن يطيق قربه وهو من يحاول مشاكسته وفتح الحوار معه، وفي كل مرة كانت تقابل محاولاته بالفشل، وبدأت أصدق تكهنات جامع المؤامراتية بأن "توبة" ما هو إلا عين تراقب وتنقل ما يدور بيننا إلى مركز القيادة، وأن مهمته استخباراتية فقط.

لعنت في نفسي كل ما هو استخباراتي، لأن هؤلاء الذين تركزت وظائفهم في جمع المعلومات فقط هم من يدمرون حياة أناس بالخطأ أحيانا لتقفيل بعض قضاياهم، أولعدم كسر هيبة دولهم أمام المجتمع الدولي، والأمر لا يقف عند هذا الحد، بل يصل إلى حد الوشاية بنا نحن المجاهدين بأرواحنا لأجل نصرة قضية هم لا يعرفون مدى عمقها وصداها.

تصدعت وكالات العالم أجمع تحكي "كذبة مانهاتن" ومقارعة الأمريكان في عقردارهم، وهزكيانهم، وفضح هشاشة استخباراتهم، وأعلن تنظيمنا مسؤوليته عن العملية، بكل فخروعزة!

وإن كانت العزة منقوصة بتغفيلنا وتهميشنا وظهورنا أمام إخواننا في معسكر الفاروق بمظهر الدمية السخيفة التي يحركها المتحكمون لإلهاء الناس، لكن يبقى الانتصار ملصوقا بصدورنا، ووساما نتفاخر به ما حيينا، لكن كلمة أبي حمزة ظلت ترن في أذني:

-قل لي يا أبا جعفر، بالله ماذا ستقول لامرأتك؟ أتقول لها: لقد استخدمتني القاعدة للتمويه وحجب الأعين عن الأبطال الحقيقين؟

-أولست أنت من كان يخاف الموت، ومن كان يعترض على اختيارهم لنا؟ أظنك الآن يجب أن تسعد لأنك مازلت حيا يا جامع.

-أسعد؟ أوتعرف شعور الراسب عندما ينجح في اختبار الإعادة؟ أوتعرف شعور الجائع عندما يملأ بطنه بطعام فاسد؟

هكذا أنا الآن، سعيد جدا أنني مازلت حيا، وحزين جدا أنني من خراف الأحياء.

قبضت على أصابعي والغيظ يتملكني لما سمعت ما قاله، بالله كيف سأواجه عيون ليلى؟

بل إن الاستشهاد أهون عليها وعليّ مما أنا فيه الآن، ثم قلت: ألا نصمت قليلا يا جامع؟

ومع دعوتي لجامع بالصمت كان فك عقدة لسان توبة! نظر إلينا قائلا: توبة... توبة... أن أكون دمية ومسخة في أيدي هؤلاء "وكان يشير في عكس اتجاه السيارة التي تقلنا، ناحية معسكر الفاروق" فقد هزمونا قبل أن يهزموا أمريكا.

ثم طالع وجه الخلاء، ووضع يده في جنبه رافعا سرواله لأعلى، ثم تمتم: هكذا أنا هزمتهم.

نظر لي حينها جامع، وقهقه بصوت مكتوم، ثم همس:

-يبدو أنه في غضون ثوان ضاجعهم في خياله، و أتم المهمة.

نظرت له نظرة استنكار ورددت: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله.

ثم نظرت للجانب الأيمن من وجه "توبة" الذي استدار عن مطالعتي، ولتلك الملامح الطفولية التي ارتسمت على تقاسيمه على أثر الغضب، ثم ما لبثت أن قهقه بصوت مكتوم، تعالى شيئا فشيئا، ثم انفجر بعدي جامع ضاحكا، والتفت "توبة" إلينا وتبدلت ملامحه المكفهرة تدريجيا مرورا بابتسامة ثغره ثم ارتفعت ضحكاته معنا، وتخلل ضحكاته رفعه لسرواله ثانية وهو يقول: إهي إهي.

ضحك الآخرون جميعهم بعدما كانوا يتابعون في صمت قاتم.

القبلة الطويلة قبل النوم

كانون الأول/2001

"القبلة الطويلة قبل النوم"

مظروف باللون الأصفر مكتوب عليه تلك العبارة: هذا ما رأيته أمام باب شقتي المتواضعة المترامية في أحد أحياء كراتشي بالجمهورية الإسلامية الباكستانية، حيث نقطن أنا وزوجتي، والتي بادرتني بسؤالها:

-ماذا بك؟

بينما وقفت متسمرا أمام باب الشقة الموارب و أنا على حالتي أمسك بهذا المظروف أطالعه من الخارج، وأخشى فتحه فيما لو كان محملا بأخبار تغم حالي أكثر مم أنا عليه من غم!

لم أجبها وتوجهت لغرفة القراءة والصلاة، وفتحت المظروف بعناية، فوجدت بداخله رسالة تبدأ بـ:

بالسلام على من اتبع السلام، أفلح من سمع وتعلم، وهلك كل مجادل بالباطل، ثم تابع الكاتب رسالته بأنه يعلم مدى تديني مؤكدا أنني أقاطع تلك المسخ التلفزيونية من أفلام ومسلسلات، لكن هذا القرص المدمج

به فيلم أجنبي يحتوي على بعض المشاهد التي سترشدني للحقيقة لأنير عقول إخو اني، ثم ختم رسالته بالسلام على من اتبع الهدى.

أمسكت القرص المدمج، ووضعته في المكان المخصص له بالحاسوب، ثم بدأ عرض الفيلم، حتى جاء ذلك المشهد الذي يحكي فيه البطل عن تفاصيل "غزوة مانهاتن" وكأنه يراها أمام عينيه، ويربط تنفيذ العملية بأن هناك عناصر من الاستخبارات الأمريكية سمحت لحدوث تلك الكارثة لاصطياد المطلوبين؛ ومن ثم أحقية الأمريكان بدك مو اقع الإسلاميين لرد اعتدائهم المزعوم، ثم فتح أبواب موازنة أكبر لتسليح الجيش الأمريكي.

كانت صدمتي حيال رؤيتي لهذا المشهد عظيمة جدا، قمت من أمام الحاسوب، وبدأت أحدث نفسي كالمجانين، وأربط الأحداث ببعضها.

بن لادن استخدمني أنا وثمانية عشر من إخو اني المجاهدين للتعتيم على العملية الأصلية، وتعنونت ساحات النقاش بين المجاهدين حول تدريباتنا، وصارت تتناقل أخبارنا بين المعسكر والآخر وكأنه يريد أن تتسامع الأخبار عنا، وتنقل كما يروج لها، في حين أن أبطال العملية الأصليين قد تلقوا تدريباتهم وتعلموا قيادة الطيارات وتسلحوا وتمولوا، ولم يسمع أحدٌ عنهم.

ما كنت أعرف شخوصهم، اللهم إلا أنني مرة واحدة رأيت ذلك الشاب الذي يدعى "محمد الأمير" أوبكنيته التي اشتهربها إعلاميا "محمد عطاء" وأما إخو انه، فما عرفتهم ولا سمعت عنهم حتى!

هل جهز ابن لادن هؤلاء من قبل؟ أين تلقوا تدريباتهم؟ ثم ماذا يعني هذا المقطع من الفيلم، رغم أن الفيلم كتب عليه أنه أنتج في 96! أي قبل الهجوم بخمس سنوات!!

أكنا نحن التسعة عشر مجاهد المزيفين خر افا لابن لادن، وكان ابن لادن نفسه مع قادته خر افا للأمريكان؟

ضربت الأرض بقدميّ و أنا ثائر بكل ما فيّ، هل يعقل أن أهرب تحت القصف الجوي الأمريكي حاملا زوجتي القعيدة، وأعرض حياتي وحياتها للخطر، وتتمزق جماعتنا ويتفتت شملنا، كل في واد لأن ابن لادن لم يعرف أنه وضع نفسه و إيانا تحت فك الأمريكان؟

دخلت "ليلى" تدفع عجلات مقعدها بيدها، لاحظتها ترتعش.

قلت لها في همجية: ماذا بك؟

-سمعتك، سمعت ما حاكيت به نفسك.

رأيت الدموع تتساقط من مقلتيها، فزعت ناحيتها وضممتها على صدري.

-حبيبتي، لن يضيع الله إيماننا، لا تقنطي من رحمته، وإن خُدع قادتنا، هذا ليس آخر المطاف.

-المطاف آخره هو ما نحن فيه يا "دهام" أنا و أنت مشردان في مدينة باكستانية لا نعرف فيها أحدا، حتى عائلات المجاهدين التزموا منازلهم خائفين من النزول إلى الشوارع تحسبا من عمليات تمشيط الأمريكان لشوارع كراتشي، أنت نفسك تنزل للشارع وتتوقع بأنك ربما لن تعود، أتريد نهاية أكثر من ذلك؟ أتريد نهاية أكثر من أنكم نفذتم ما كان يرغبه الأمريكان؟ لم تفعلوا شيئا خرافيا هزكيانهم الدولي، إنهم الآن يقتصون منكم، جعلوكم تتطايرون كالجراد كل في اتجاه، منكم من استشهد ومنكم من اعتقل في معتقلاتهم ومنكم من اعتقل بقيد الإقامة الجبرية كما أنا و أنت، ومنكم من يفرون ويكرون في "تورا بورا" ومنكم ومنكم! أهذا هو ما كنتم تطمحون إليه؟ قل لي بربك أيناه حلم الخلافة الذي حدثتني عنه؟ قل لي أيناها حياة الرغد والعزة ونصرة الحق؟ أما تظن أنك كنت بالطريق الخطأ؟

قلت:...

قاطعتني وقالت اصمت، اليوم جاء دوري كي أتحدث وأردفت:

-وإن فهمت اللعبة في الأخير، وإن اقتنعت أنك كنت على درب الخطأ، ماذا أنت فاعل؟ أنعود للديار؟ ستكون أول ضيوف معتقلاتهم، وربما يسلمونك للأمريكان! أنت مطلوب دولي، دولي يا "دهام".

خارت قواي، نزلت على ركبتي، وسجدت لله أناجيه بإجهاش: أبكيه الرحمة والخلاص.

ما عدت أعرف ما أنا عليه، هل هو الحق؟ أم الباطل؟

خرجت "ليلى" تاركة إياي، ولأول مرة أرى قسوتها تهاجم ضعفي وألمي وحسرتي، أنا لو كنت على خطأ فإني قبل أن أكون مخطئًا كنت مخدوعا، وكنت أبحث عن حلم الهوية، و انتزاع الحق من بطن الظلم، ونصرة المظلومين، ورفع رايات الدين، هذا ما كنت أتمناه، وأحلم به... ويا ليت كل الأحلام حقيقة، ويا ليت جهاد تعود لي اليوم، ربما فهمت ما أنا فيه من أوجاع، وربما ما فعلت كفعلة ليلى!

الأحلام كلها تتبخر أمام عيني: جهاد راحت، وحلم نصرة الحق راح معها، وحتى حنان ليلى تبخر، تطاير، لم تعد تحنو على وهني وضعفي، ولم تشد أزري كما شددت أزرها سلفا.

أيناك يا رفيق الجهاد، أيناك يا أبا حمزة تؤنس رفقتي، ظللت معك أعلمك الصالح و أبعدك عن الطالح لسنين وسنين، أما الآن فإني أريدك أنت لتخبرني أين صالحي و أين طالحي؟

أين أنا من كل هذا، و أين الحقيقة بين كل هذا السراب.

نصبت قامتي منتصبة أدور في فلك الغرفة كأسد يزأر، ويحلم كأحلامي الوردية بأن يجد فريسته ليمزقها، ولكن يا ترى أين هي فريستي؟ من هو خصمي؟ ومن من سوف أثأر؟

أبشع أنواع العداء هو أن يصيبك الأذى ولا تعرف عدوك.

أنا حقيقة تاهت بين مغارات الخداع!

أنا الشيخ أبو جعفر الذي كان يتحاكى الناس على خلقه ودينه، وحكمته وعقله، أصبحت دمية في نظر نفسي، وأصبحت منتعلا في نظر زوجتي.

ظللت أتحرك في فلك الغرفة أطالع ذلك المشهد في الحاسوب، الذي توقفت عنده الشاشة، و أنظر لباب الغرفة الذي أوصدته عليّ، و أنظر للحيتي التي بدأت تكبر من جديد، أمسكها بأطراف أناملي وأعود أدور.

ثم قلت بصوت جهور:"هذا العالم لا يحبنا"

رددتها وتلك كانت خلاصتي بعد تلك التجربة القاسية.

صدقا هو لا يحبنا، لماذا لم أكن مستقر الحال، وهادئ الحاضر وآمن المستقبل!

أي مستقبل؟

الاستشهاد وجنات العلا؟

حتى تلك الشعارات ما عدت أؤمن بها، من قال أنني لو مت برصاص الأمريكان سأكون شهيدا! لِمَ لا أكون من ضمن الخراف الذين سقطوا ضحية الخديعة الكبرى؟

الجنة لا تضم الخراف! حتى لو كانوا ضحية مثلي، ضحية ابن لادن وأعوانه، ضحية مؤامرات الأمريكان لأجل أن تستزيد حصتهم بحفنة من الدولارات!

أنا وغيري كنا الجسر الذي تعبر الدولارات عليه لترقد في جيوبهم، جيوب السادة، سادة العالم.

اللعنة وكل اللعنة على ما فاتني من واقع على هيئة أحلام،لتسقط كل الأمنيات، وسحقا لكل الأحلام، أيا كل أمنيات العالم لكم الهلاك، ويا كل أحلام البشر، ما هكذا تكون الأحلام.

حلم النصر، وحلم الاستشهاد، وحلم اللاتقسيم، وحلم الوحدة تحت رايات الدين، وحلم جيهاد عروس الجنة، كلها كوابيس وليست أحلاما.

أريد شاحنة من طابقين لأعبئها بأحلامي، ثم أضع فيها متفجرات كما التي كنا نصنعها في مركز القيادة، وأضغك على زر التفجير، لتنفجر وأنفجر معها،هكذا سأكون راضيا تماما عن نفسي،شاحنة أحلام!

أستمع لصوت شاحنة تمر من تحت شرفة منزلي المتواضع، المتواضع كما أنا وكما كل ما فيّ، فتهتز قناعاتي بهزة الجدران، ويهتز معها يقيني بعقيدتي.

وكيف لا تهتز وهذا الخرسان قد اهتز، وهذا الحلم قد تحول لسراب؟

أنا ومن معي كلنا سراب، وهذا الذي ترك لي ذلك المظروف أيضا سراب!

توقفت هنيهة عند ذلك الذي ترك لي تلك القنبلة، وتساءلت: ترى ما هدفه؟ وما مصلحته؟ ولِمَ أنا بالتحديد من اختارني؟ وكيف تفهم تلك الخديعة؟ ومن خلفه؟ وإلى ماذا يسعون من بث تلك الحقائق؟

الأسئلة تعتصم عند مرافئ العقل، ولا تجد أجوبة شافية، وباتت الوحدة تقتلني، وساد صمتا لاذعا بيني و ليلى، ما كان هذا القصف الأمريكي بمثابة خراب على جسد الجماعة فحسب، بل دمر حتى حياتي وقناعاتي ويقيني.

عزمت حينها ألا أكون فريسة لليأس، جففت بكفي دموعي المنسابة، و اتكأت على ما تبقى في روحي من ثبات، واستغفرت ودعوت ربي بأن يرشدني للصواب، و انتويت أن أبحث عن إخواني لتوحيد الصف من جديد، ورفع لواء القضية على أكتافنا، دون انتظار قرارات القادة التي أوقعتنا في المؤامرة الكبرى.

أفلت حينها من يدي زمام الأسئلة، وأمسكت بدلا منه قلمي وبدأت أربط تتابع الأحداث ببعضها كي أتوصل لحقيقة الثغرة التي أودت بهلاك التنظيم.

اغتيال "شاه مسعود" كان مكافأة لطالبان، ورشوة لسكوتهم عما سوف يتم تنفيذه في الأمريكان، وكنا نحن وإخواني أدوات التضليل الأمريكي أو كما كان يظن قادتنا أننا كنا كذلك، بعد ذلك المقطع من الفيلم الأمريكي، أظن أن عيون الأمريكان تبيت بداخل أحضاننا.

هكذا خيل لقاداتنا بأنهم يزيغون عيون الأمريكان ويضللوهم، هكذا اعتقدوا.

لا لا ليست هكذا ترتب الخيوط وترتبط، البداية من عند "خالد شيخ محمد" أو ربما من عند "ابن شيبة"!

صَمت للحظة وتوقف قلمي مع تلك الصمتة التي امتدت للحظات ثم لسويعات حتى انتفضت فجأة، و أيقنت بأن تجميع الشمل سيكون من عند محاولة للتواصل بأحد الإخوان شديدي الإيمان بالقضية، فكرت من أيهما سوف أبدأ؟

"طيشة" أم "نايك" أم "توبة" أم "جامع"؟

جامع لا يملك من القضية سوى حلم الإمارة وحلم تجميع زوجاته تحت سقف بلد واحد! و"طيشة"!! لا... لا... لا يجوز لهذا التعاون الذي أتمناه.

و"نايك" تعتمل رأسه بنظام الدفاتر القديمة، ولم يتواكب مع تكنولوجيا العصر، سوف يؤخرني معه، ولا حاجة لي بالطبع لأن أتواصل مع القيادات، هم سبب الأزمة وهم خراف المؤامرة والخديعة الكبرى.

إذا لا يوجد أمامي سوى توبة.

نعم توبة..

لبست ثيابي وتلثمت بشال على وجهي، وفتحت باب غرفتي، وإذا بها تجلس على مقعدها أما غرفتي، وكانت نظراتها تنم عن هبوب جيوش جرارة من التوبيخ والنكد، وصدقت نبوءتي عندما وصلت لباب الشقة، قالت حينها:

-إلى أين يا دهام؟

-إلى أحد الإخوان.

-إخوان، إخوان ثانية يا دهام؟

-اصمتي اصمتي اصمتي.

هكذا رددتها بحنق مبالغ ثم خرجت و اتجهت للمرشد الباكستاني الذي تولى مهمة توصلينا بعد القصف الأمريكي، كان بمثابة ضابط إعلامي يختص بتوصيل القيادات بالإخوان ولديه كل خيوط التواصل وبيانات الإخوان وما آلت إليه ظروفهم.

طرقت باب الشقة التي يقطنها، فتح لي شاب ملثم:

قلت له: أريد...

لم تكتمل عباراتي حتى قال: تفضل، هو بالخارج الآن.

جلست في غرفة مربعة لكنها كانت في نظري مستديرة، استلقت الأجساد والتحمت ببعضها البعض على الأرض في شكل شبه دائري، جلست أطالع حالاتهم، هذا مجروح، وهذا يخلد في نومه، وهذا أخفى رأسه بين فخذيه، وهذا يتحدث مع رفيقه بصوت هامس.

يا الله! ما هذه البشاعة، أو كل هؤلاء مخلفات حرب الأمريكان؟ أو كل هؤلاء كانوا نتيجة للخديعة التي وقعنا فيها؟

مرت ساعة ونصف الساعة حتى وصل ضابط الإعلام الباكستاني "ميزان" أو كما كنا نلقبه بـ"ميزان بيو".

طالعني كما طالع العشرات المتناثرين في تلك الغرفة!، ثم أشار لمساعده وقال في لهجة أوردية: عبارة وهو يشير على اثنين من الإخوان.

فهمت أنه يطلبهما لمقابلته، بعدما تحركا إلى الداخل، وبعد مرور نصف ساعة تقريبا، خرجا متجهان إلى باب الشقة، وأشار لي مساعده بأنه يطلبني، هممت متجها إلى تلك الغرفة.

غرفة متواضعة بها سرير متآكل وثلاثة أجهزة كمبيوتر، وشاشة عرض كبيرة نوعا ما تبث أخبارا لقناة مجهولة الهوية بالنسبة لي، لكن مذيعها كان يتحدث بلغة أوردية، وأربعة هواتف نقالة وجهاز لا سلكي، ومجموعة أقلام بجوار دفتر مفتوح على صفحة لم يكتب فيها إلا "بسم الله الرحمن الرحيم" باللغة العربية متوسطة الصفحة.

ألقيت عليه التحية وقلت:

أريد التواصل مع أحد من الإخوان الذين خدموا في معسكر الفاروق، وأريد السؤال عن بعض منهم لكي أطمئن على ما آلت إليه ظروفهم.

أشار بكف يديه بما يفيد أن أبدأ بطرح أسئلتي.

قلت: جامع "أبو حمزة" والشيخ توبة والشيخ "طيشة" والشيخ "نايك" وبن لادن وخالد شيخ محمد.

- "طيشة" فر من القصف ولا نعرف له خيطا واضحا يوصلنا به، وأغلب الظن أنه سافر إلى مصر بجواز سفر مزيف أو عبر إلى حدودها من إيطاليا

عبر السواحل، وصولا إلى ليبيا ثم إلى مصر بدخول غير شرعي عن طريق الصحراء.

أما ابن لادن فهو مرابط في صحراء "بورا" يواجه رصاص الأمريكان ومطارداتهم، وشيخ محمد لجأ في -أغلب الظن- إلى حمايته الدبلوماسية مجهولة المصدر، أما أبو حمزة، فقد تزوج من زوجة جديدة وسارح في ملكوت عشق جديد يحسد عليه، ويبحث عن حلم جديد بتجميع زوجاته كلهم تحت سماء ألمانيا! وأما "توبة" فهو جارلك في كراتشي.

ثم أمسك القلم وقال: وتلك هي عناوينه التي يتردد عليها ورقم هاتف مؤكد أنه سيجيبك بنفسه إن حاولت الاتصال عليه.

ثم وضع كفيه على المكتب المقابل له ولي، وقال: أي خدمات أخرى أقدمها لك؟

قلت: لا.

قال: أي دعم؟

ضحكت وقلت: يكفيني دعم القبلة الطويلة قبل النوم.

نظر حينها لي فاغرا فمه، وأخرج من درج سفلي من ذلك المكتب، مظروفا وقال: أتقصد هذا.

قلت بلهفة: نعم نعم هو، ما شأن هذا الخطب؟ وما قصته؟

وقف حينها وقال: المقابلة انتهت يا أبا جعفر.

خرجت منكسا رأسي ومفعول المؤامرة يعتمل أكثرفي عقلي، وما عدت أثق في أحد حتى ذلك الضابط الاستخباراتي. ما عدت أثق فيه!

توبة إن كنت...

لمعت تلك النجمة في عيني وهي تتوسط السماء، وران القلب هادئا يهذب تلك الصراعات التي تتناحر في رأسي، وصوت صفير الصمت يجلجل أذني، وصارت وحدتي مصارعا وخصما أنزل بي هزيمة نكراء، لجأت لصحبته بدلا من شراء عداوته.

في زمننا هذا إن كنت تريد أن تأمن شر شيء فر افقه، صاحبه، صادقه، ولا تُصدّقه. وأما مفاهيم الانتقام التي تعيد للكرامة شموخها ومفاهيم الشجاعة التي تحطنا في أو ائل الصفوف، والبقية من خلفنا في وضعية الانبهار والتصفيق! كلها مفاهيم اندثرت، وما عاد النبل سلعة يتهافت على اقتنائها الناس.

هذا الزمن هو زمن الوقاحة، والمؤامرة، والخديعة، والنكران، والتبلي، إنه زمن الابتلاءات. زمن رأس ماله هو أن تكون ثعلبا وأسدًا في نفس الآن! كما قال ميكافيلي "على المرء أن يكون ثعلبا ليعرف الفخاخ وأن يكون أسدا ليرهب الذئاب".

إما أسدا أو ثعلبا، ولا وجود للجرذان والأرانب هنا، كما أن عوالم التكنولوجيا بها قطع تعتبر تكميلية خدمية لضمان جودة المنتج الأساس، هكذا دور الجرذان والأرانب، هم كائنات خدمية خُلقت لكي تكون طعامًا للملوك، وعلى أعتاب تلك المطاردات الشرسة يستمتع القوي بقوته، ويقبض قلب الضعيف إذا ما غرست في فروته مخالب النهاية!

اللعبة قد انتهت الآن، كنت أنا ومن معي بمثابة السكين الحاد الذي وضع على رقاب الأمريكان، في حين أن المقبض كان بأيدي أحد ما في مكان ما! لم نكن أبطالا كما تخيلنا، ولم نكن أذكياء كما وهمونا، ولم نملك مفاتيح تحريك الأحداث كما اعتقدنا، لم يتعدى دورنا قطع الشطرنج في أيدي أسياد اللعبة. وأظنها اللعبة الوحيدة التي انتهت بمكسب الخاسر.

مَن الآن تسيد؟ مَن الآن قد تحكم؟ مَن الآن...

إنهم الأمريكان من قدموا لنا أدوات طعنهم ليكون الرد تمكينهم من تدميرنا.

الانتصارات الجميلة هي تلك التي تدوم أعراس احتفالاتها طويلا، أما تلك الانتصارات التي تومض ليلة ثم تختفي، تندثر، تهرب، تذوب، تتبخر، ليست بانتصارات، إنما اشتباه بانتصار، أو انتصار مزيف ينزف بسلسلة من الخسائر التي لا تتوقف، ولا أظن أن خسارتنا ستتوقف،

مازال الأمريكان يسجلون أهدافهم واحدا تلو الآخر في مقابل شعارات رنانة نرددها ونهتف بها لوأد الخوف الذي ترعرع في صدورنا، وتشجيع أنفسنا على نهج "الله الذي لم ينصرنا، حتما سوف ينصرنا" ولكننا كنا ومازلنا واهمين، ليس تشكيكا في عدل الله، ولكن تشكيكا في نفوسنا التي ملئت بالتواكل والثقة في من لا يستحقها! والسؤال الآن: ترى من يستحقها؟

لملمت أوراقي المبعثرة أمامي وهجرت تلك النجمة اللامعة وسط السماء، وانتقلت من تلك الشرفة التي تطل على إحدى الشوارع الجانبية من مدينة كراتشي، تلك المدينة العجوز التي ضمت فتاتنا وأشلاءنا المتناثرة بعد الهجوم الأمريكي، وأغلقت بابها وجلست على مكتبي أجمع تلك الخيوط التي شرعت في تفنيدها، ولم يحل "الوجع" الذي أفئد روحي إلا بذلك الكوب الدافئ من الشاي، وعلى أنغام "أغنية" توبة لمطربي المفضل عبدالحليم، الذي أستمع إليه خلسة بين الحين والآخر ثم أوبخ نفسي، وأجلد ذاتي، ورغم أنني جاهدت مقاطعتها، إلا أن الفشل في كل مرة كان يحيطني كهذه المرة أيضا، وبعد أن بدأ في شدوه "توبة إن كنت أحبك تاني توبة" سلمت أطرافي وهامت روحي وانتشت بسمة لامعة على ملامح وجهي، وعلى أنغامها ظللت أتمايل، ويتمايل معي سطح كوب الشاي، لا يستقر مستواه، كهذا التموج الذي اعتمل في عقلي لما، تساءلت: ترى من

يستحقها -الثقة-؟ وترى من سلمنا للأمريكان كطعم لاصطيادنا، فقد كنا ولأول مرة في تاريخ البشرية "الطعم والفريسة".

دهستنا إدارة "بوش" من ذلك الخطاب الذي ألقاه ذلك الخنزير، وبعد تلك العبارة التي ذاع صيتها بعد تنفيذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر؛ إذ قال: إما معنا، أو علينا.

ومن هنا بدأ الجر على أجسادنا، والجرار الذي يقود العر ايا لزبائنهن يجب أن يتصف بالخنوع، واللامبدأ، والعهر الفكري قبل الجسدي.

اقتادنا رؤساء العالم وملوكه كعاهرة وقبضوا الثمن قبل أن يغرس الأمريكان مدافعهم فيما بين أفخاذنا! وأما الثمن كان بخسا هشا، لا يعادل العهد والوعد والشرف!

الشرف لا يكمن في عور اتنا، تلك المفاهيم قديمة قدم الزمن نفسه، الشرف الحقيقي في عقولنا، والعهر الحقيقي في رؤوسنا، والخوف دائما ما يكون بو ابة العبور لفض غشاء بكارة الشرف.

الخوف من أي شيء، من الجوع، من التشرد، من الحروب، من تقلبات الزمن! المهم أن كل التخاذل هو بعض من الخوف. كخوف شريكتنا "إسلام أباد" التي ارتضت على نفسها أن تكون منصة لقصف مو اقعنا في أفغانستان، بتلك العبارة التي قالها الخنزير "إما معنا أو علينا" جعلتهم يرتكنون إلى المعادلة الحقيقية والتي فيها: لو عارضنا الأمريكان حينها

سيكون القصف الأمريكي نحو أفغانستان من نيودلهي، وحينها سنصبح بين شقي الرحى، وسينالنا ما سوف ينال الأفغان، ومن ثم فجاء التأييد من عند ذلك التبعيض، حيث الخوف!

الخوف ذاته كائن ملعون يصب بجر اثيمه في صدري بين الحين والآخر كلما رن هاتفي، ينتابني ذلك الشعور السيء الذي يقول ليّ: هذا الرقم الذي يتصل بك يحمل لك خبرا سيئا! يتلاعب إبهامي على زر القبول، ثم على زر الرفض، أو اللا زر، الترك والتجاهل! ولكني وصلت لقناعة بأن الفاجعة لن تنتظر قرار إبهامي، هي آتية كسيل جارف لا محالة! سواء قبل إبهامي أو رفضت باقي عصبته؛ لذا أصبحت أقبل كل المكالمات دون غضاضة أو خوف، كما سأفعلها الآن.

قبلت المكالمة، وإذا بالمتصل يلقي السلام.

-وعليك السلام والإكرام.

-أعرفتني؟

-بالطبع نعم.

-من إذن؟

-أبو جعفر.

-ما شاء الله على ذاكرتك، أيناك يا رجل؟

-في نفس المعتقل الذي أنت فيه باختيارك.

-عرفت ذلك من ضابط الإعلام "ميزان بايو"

-تقصد "عبد الله"

-لا لا إنه :"ميزان الباكستاني"

ضحكت بصوت عال ثم قلت: نعم إذا هو عبد الله اليمني.

-أهو يمني وليس باكستانيا.

-نعم هو كذلك؟ المهم أين أجدك؟

-لديّ عنو انك ولكني أحببت التأكد.

-لا لا خذ هذا العنوان، هو الصحيح

وبعدما أعطيته العنوان، على وعد بقدومه فيما لا يتعدى الساعة، أخذت أغلق دفاتي وألملم أوراقي، و أتساءل: ترى ماذا يريد مني؟

أوصله ذلك المظروف؟ أعرف الخديعة الكبرى؟ أيحتاج أموالا؟ أيريد مساعدتي؟

توقف يا توبة، توقف عن تلك التكهنات، ثم تمايلت مجددا "توبة أحبك تاني توبة" ويبدو أن الوقت أصبح لا خير فيه ككل شيء في هذا العالم،و رفيق الجهاد قد صارع شوارع كراتشي، واعتلى بساط شق جدران الأماكن والأزمان، وجدته يدق الباب، أوقفت شدو العندليب، و اتجهت لفتح الباب.

وإذا به أبو جعفر، ملامحه تقول هذا، لكن وجهه شحب، وعظامه طفت، ومنكباه انكمشا وتضائلا، وخط وشاحا أسودا ذا هالة أسفل عينيه. وقد ترامت تستبقه كرات من الهم والغم، ما عرفت بأيهما أبدأ؟ بضمه واحتضانه، أم في لملمة تلك الهموم والغموم؟

وبعد الترحاب والسلام والكيف والحال، باغتني بمظروفه الأصفر الذي فك تطبيقاتها بعدما حرر قيده من جيبه الأيمن، ثم قال: أو تعرف ما خطب هذا؟

ابتسمت: قد وصلك ووصلني، ووصل العشرات كما وصلنا.

-ومن له المصلحة في زرع تلك المعلومات وشق صفوفنا؟

قلت مندهشا و أنا أرفع حاجبي: شق ماذا؟ أوما زالت صفوفنا لم تشق؟

صمت وطالعت عيناه الأرض.

لحقته وقلت: يا رفيق الجهاد، إنا خدعنا.

-كنت أتمنى أن أجد عندك غير تلك القناعة، لربما جددت اليقين ثانية في قلبي بما كنا فاعلين

-أنت و أنا ومن كان بيننا، كنا في حالة حرب، وفي الحرب كل شيء مشروع! حتى أن نساق كالأغنام، لمصلحة الأسياد.

صمت مرة أخرى ولملم كرات همه وغمه بعدما ظللنا ندور في نفس تلك الدائرة ثم سألني عن باقي الرفاق.

أجبته بما أنا على يقين منه:

أبو حمزة مع زوجته الجديدة وهي مصرية الجنسية، ويقيم هنا في باكستان، ربما في كراتشي أو إسلام أباد لا أعرف أين بالضبط، والشيخ "طيشة" طرق حدود مصر بطريقة غير شرعية، وخالد شيخ محمد و ابن شيبة هنا في باكستان أيضا.

قال مندهشا: لكن ضابط الإعلام والاستخبارات أخبرني بمعلومات مغايرة، منها ما يتشابه مع معلوماتك ومنها ما يناقضها.

-نعم توقعت ذلك، هو ينفذ ما يملى عليه فقط، وهناك من لا يريد أن يعرف أحد ما مكانه، وهناك من هم مثلي، من لا يمثل هذا فارقا معهم.

-لكن لماذا تعرف أنت المعلومات الصحيحة؟

-كما عرفت أنك تقصد عبد الله اليمني، وليس "ميزان باي" الباكستاني كما ادّعى عليك.

-نعم ولكن من أين لك بتلك المعلومات الدقيقة؟

رجعت للخلف ووضعت ساقي أسفل مؤخرتي، وأسندت بمعصمي فوقهما، وقلت:

أو تعلم يوم أن أمرونا بأن نتحرك لتنفيذ عملية ذات نطاق واسع؟

-نعم، تلك الأيام المشؤومة.

-كنت أنا على علم بكل ما سوف يجري، كنت على علم بأننا أدوات ابن لادن التضليلية لتسريب الإشاعات والتغطية على العملية الأصلية، ولكني اكتشفت بعدها أننا ومعنا ابن لادن ومعنا هؤلاء التسعة عشر مجاهدا، كنا كلنا أدوات في أيدي الأمريكان.

انتفضت عيناه على أثر الصدمة وقال: من أنت؟

ابتسمت وقلت: أنا توبة، ثم وقفت أترجل قدماي و أنا أتمايل، مع رفع سروالي: توبة أحبك تاني توبة.

تركته بكل ما أوتيت من قلة حياء و انعدام للذوقيات، تركته ودخلت غرفتي، وأغلقت بابها عليّ، ثم وقفت خلفها أراقب بأذني ما سوف تؤول إليه الأمور، هل سوف يرحل، أم سيطرق الباب عليّ؟ أم...

الآن سمعت صوت الباب الخارجي يغلق، عرفت أنه رحل، وربما رحل بدون عودة، وكنت قاصدا ذلك جدا، فإني عشقت وحدتي، وقبلت حموريتي التي اقتنعت أنها الصفة الأقرب ليّ، وأعلنت العزلة كشعار للمرحلة، لا أريد أنيسا، ولا جليسا، يكفيني هذا -عُبَد- العندليب.

لعنت كل شيء وأخذت أفكر في معضلة ترى أي الفصول يتوسط بين الشتاء والخريف؟

خريف الزحف الأفغاني بقيادة "تحالف الشمال" الذي تزعمه الجنرال"فهيم" خلفًا "لشاه مسعود" والذي تزود بملايين الدولارات والأسلحة من الأمريكان وأعلن ومعه أمراء الحرب النفير العام ضد طالبان ليقتصوا منهم، واستعادة مكانتهم كأسياد على كابل، ولإرضاء الأمريكان في تحطيم أسطورة ابن لادن ومعه القاعدة من جهة أخرى. كانت قوات التحالف تقصف طالبان والقاعدة، وتشكيلات تحالف الشمال تزحف على الأرض ولاسيما كانت المزاوجة فعالة بين "الكتالوجيا" المتطورة والمعرفة المحلية بالميدان، ولم يمر أكثر من شهر على تنفيذ أحداث سبتمبر حتى سقطت "مزار الشريف" وبعدها بيومين

سقطت "هيرات" ثم غادرنا وطالبان "كابل" متقهقرين حيث أتينا أول مرة حيث "قندهار" و انتشرت قوات طالبان على ذلك الخط الحدودي المستقيم مع الحدود الباكستانية. وقد ظن الأمريكان أنهم قضوا على زعماء القاعدة بعدما فروا أمام زحفهم وقصفوهم! ولكن ما لم يفكر فيه الأمريكان أننا وبعد أن استفقنا للخديعة، سوف يهزمون قاعدة وستخرج ألف قاعدة.

الهزيمة كانت مريرة لأنها لم تكن هزيمة عسكرية ميدانية فحسب، بل كانت هزيمة معنوية في صلب قناعاتنا حيث أننا شعرنا بأننا حمير، نساق كما يريد من يملك العالم.

تنفست قليلا بعد استرجاعي لتلك الفراغات الزمنية التي فصلتني عن اللحظة التي أتغنى فيها مع "عُبد" و أقول "توبة"!

"ماركة باتا"

اللاءات تحاصرني، تحاوطني، تجبرني، تمنعني عن طيف العودة الذي لاح في الأفق، وبدأت أتماسك ظاهريا لأكبح جماح الشوق تجاه تراب الوطن! اشتقت ذلك الهواء البارد الذي يلفحني الآن وينقلني إلى ضواحيها، وشوارعها.

بيني وبين الجدران علاقة وطيدة، وبيني وبين رائحة الهواء قوة تجذبني وتلعن ذلك المعتقل الجبري بالإقامة التي فرضتها بنفسي على نفسي.

الحنين إلى الماضي يدغدغ عواطفي المكلومة، وربما هو في حد ذاته رثاء على ما آلت إليه أوضاعي، وإن كانت أفضل حالا من غيري، لكنها بالتأكيد ليست كما كنت أتمنى، وتتوقف معيارية الأفضلية على حجم التمني الذي نبتغيه.

كنت أبتغي مستقبلا مغايرًا لما فرضته عليّ الظروف في مجتمع لا يعترف بالمختلف، ولا يقدر الكوادر الفكرية، يسحق هاماتهم، ويبدل طاقاتهم إلى يأس ممنهج! هكذا صنعت فينا أوطاننا التي نشتاقها! وللإنصاف لا ذنب للأوطان، إنما الذنب هو ذنب القائمين على تسيير أمور الأوطان.

أنا لا أخشى على أولادي من مناهج الدولة، و إنما أخشى عليهم من هؤلاء القائمين على تطبيق المناهج! وفي تبيان الفرق سيبين المنهج والتطبيق، تكمن الكارثة، كارثة أجيال غفلت، وكارثتي أنا بشكل شخصي.

تنشطر الآهات، تتشعب، تنتشر وتتلاقى في الهواء متزاوجة حتى ذلك اليوم المعلوم الذي تثور فيه الآهات متجمعة ضد طغيان الإصبع الذي يضغط وبكل عنف على مكان التقرح.

الصمت وإن كان دليلا على العجز إلا أنه في حد ذاته مرحلة مهمة للوصول إلى مستويات الانفجار والبراكين، كل شيء يبدأ من العدم حيث السكون، ثم يتأدلج صعودا وهبوطا حتى يصل إلى الحد الذي لا يتوقعه أحد. كهذا التأدلج الذي يمر أمام عيني الآن، أبتسم تارة وأحزن تارة أخرى.

أبتسم يوم تخرجي من الجامعة وحصولي على درجة الامتياز مع مرتبة الشرف في تخصص -الكيمياء- وتعييني معيدا بالجامعة، جامعة القاهرة، حيث القبة التي تمنيت أن يخالط حذائي المشهور بماركة -باتا- أرضها، ثم وجوه أولاد اليهوات، ونظراتهم التي كانت تطالعني بشغف ربما أو باستنكار، استنكار على طريقة: من هذا؟ من هذا الذي يأكل مساحات وجودنا تحت حذائه العفن، ويحظى بقبول أساتذتنا وتشجيعهم، من هذا كي يكون؟ وهو بالأساس ما كان! كنت استمع لتعليقاتهم وأحتفظ

بها في صدري حتى تختمر وتتطيب جيدا، وتقدح حماستي وعزيمتي أكثر وأكثر لكي أكون رغما عن إنكارهم لوجودي، أمسكت لجام العزم وتحديت كل أعراف وقوانين "البيروقراطية" اللعينة، وأزلت بكف يدي الهزيل أتربة تعتّقت بكثافتها فوق جسد الزمن حتى لا أقبر حيا لأن قوانين بلادي تُنصف من هم أسمى نسبًا على من هم أسمى فكرًا واجتهادًا.

اجتهدت حتى وصلت لذلك المقعد الذي وضعت أمامه "لافتة الأستاذية" وحصلت على الدكتوراة في تخصصي مفتتا كل العقبات التي ترامت كمطبات اصطناعية أمام هرولتي، ولأن تلك الهرولة ذاع صيتها، وأصبحت معروفًا وسط جموع الأساتذة، وبسبب ذلك التف حولي من يؤمنون بالقدرات، ومنحوني ذلك الاهتمام والتقدير الذي كنت أنشده فأصبحت بينهم سيدًا رغم ضآلة علمي برفقتهم، وأعروني على نفقتهم إلى ألمانيا -حاضنة المواهب والأفذاذ- وقيل لي يومها، هناك -حيث أرض النازية التي كانت- ستجد من يُعيلك ومن يؤسسك ويتبنى عبقريتك، ووجدت ما وُعدت به.

استقبلوني استقبال الغازي "المحرر للأرض" التي عانت أعوامًا من بطش الاحتلال، ووجدت عندهم كل ما فقدته على أرض بلادي، وحظيت حينها بلقب المجاهد، ولم أكن أي مجاهد، بل كنت عضوًا خفيا من أعضاء القاعدة! أي أنني لا أظهر في المعسكرات ولا في تجمعاتهم لخطورة الدور

العلمي الذي سأقدمه، أفنيت ليلي في الأبحاث، ور اقبت ذلك التطور الذي حل برأسه على العالم، وأصبحت أميرا بلا إمارة، هكذا كانوا يعاملونني، ولما رجعت لأرض الوطن وجدت هناك في نظرات من رشحوني للسفر تفاصيل انبهار كتلك التي ينظرها قروي تشققت أقدامه من احتكاكها بالطين لهيئة رجل أجنبي لم يعتد طلته، وتمنى لو كان بمكانه.

أنا الذي لم أكن...

ها أنا أصبحت! وارتميت أسفل القبة، قبة الجامعة، و انتعلت أرضها بحذائي الجديد، لم يكن هذه المرة ماركة باتا، بل كان بمئات الجنيهات، في حين أن أضخم الرو اتب داخل ذلك السور الجامعي لا يتعدى الخمسة وأربعين جنيها.

هكذا أنا في نظر نفسي قد انتصرت، ولم يكن انتصاري على هؤلاء الذين نهروني في الماضي فحسب بل انتصرت على الزمن نفسه، و انتصرت على نفسي، فهكذا أنا على الطريق الصحيح.

كنت يومها أبحث عن وجهها، وجه "سحر" ومازلت إلى حيني لا أعرف هل أنطقه "سَحر" أم سِحر؟ كانت ملامحها فيها من السحر ما فيها، تعتقل قلبي مأسورا قيد اقترابها، وترتعش أطرافي بصورة لم أكن أفهم أسبابها، ثم أناظر نفسي وهيئتي، وسرعان ما أتوارى عنها، أتوارى عن نظرها،

مازال لم يحن ذلك الوقت الذي سأواجه عينيها و أقول مُحدثًا نفسي: أيناي منها، و أيناها مني؟

اللعنة على الترف، كل الترف، اللعنة على حماقاتي، وعلى قلبي، قلبي الذي فُئد بدون إذن مني، صرت في عشقي درويشا، وصار العشق يتمدد في أوردتي، يحملني إلى بكاء طفل إذا ما أراد أن يتملك لعبة لا يملك أهله ثمنها.

اغتربت حينها رغم أنني كنت في قلب الوطن، وما أبشع أن نغترب في أوطاننا، وأن ننفى ويتغيب وجودنا بحضورنا.

خانتني "سحر" بسحرها، رغم أنها لم تعاهدني بشيء، ولم ينطق لساني أو لسانها بعبارة واحدة تفضي بعشق المأثوم بولعه.

ظللت أجول داخل أسوار الجامعة، أبحث عن رائحتها التي كانت تعلن دوما عن حضورها، أبحث عن أجنحتها التي كانت ترسمها في عيني كفراشة تتطاير، وتقذفني بعتاب حميمي في مخيلتي المريضة: متى ستقولها يا... ؟ وقبل أن تنطقه، تنطق اسمي، كانت تنقطع أحبالي الخيالية، كان جُل ما أتمناه أن استمع لحروف اسمي وهي منطوقة عبر شفتيها، السحر الحقيقي كان سيحل حينها على أذني.

استبدت كل أحاسيسي وتملكتها بوضع اليد، بدون قانون التباديل الذي يعتاده العشاق! عرتني أمام عجزي الذي لم أصنعه بيدي، ولكن

الحظوظ هي من حكمت عليّ بهذا العجز! عاجز بفعل الزمن، عاجز عن أن أقتربها و أقول لها ما يعتمل في صدري، نهرت نفسي، وأسست قانونا عمليا كمعادلات الكيمياء التي تأكسدت في عقلي، العاشق ينقصه العقل، والعاقل ينقصه العشق! وكم أنا في حاجة لعقلي، عقلي الذي صنعني وجعلني أنا كما أنا اليوم.

سمعت اسمي في المذياع داخل تلك القاعة، وخطت أقدامي أول خطوات ناحية ذلك المقعد الذي سأقود فيه محاضرة توجت بالتواجد الإعلامي؛ لأتبرع لهؤلاء بطفيف علمي الذي أعلنت عن تحرره من عقلي، ولكن خطواتي رغم أنها كانت تسير باتزان إلا أن شعورا ما كان يتملكني، بأنني أسير للخلف، لا أتقدم.

بجوار مقعدي الذي سيكون كانت تجلس هي! وسيجيئ ذلك اللقاء الذي اشتاقنا ولم نشتقه،ورغم فجع المسافات التي كانت بيننا.

كنت كلص فوق سفينة، يبحث عن مخرج يفر منه بكل ما جمع من خيرات وملذات. ولكن إلى أين المفر؟ إلى لجج البحر! هروب من مأزق لأحضان مآزق، ونفير من قبضة إنسان إلى فكوك الحيتان.

من فوق بهوي العلمي أحاضر الجموع، وبجواري ملكة تمنيت أن أعتلي عرشها، وأسقيها حلاوة عشقي، وبين الحضور هؤلاء الذين كانوا يصرون

في أيام مضت -بلا عودة- تحطيم حصون معنوياتي، وتقليل همي وعزيمتي.

أقبض على سعادة الدنيا كلها الآن: جاه، وحب، وسلطان وأموال، وحذاء!.... حذاء لامع بدرجة تلفت أنظار الناظرين، تتفقدهم تركيزهم وتضعف من إبصارهم.

جلست أرسم بكلماتي الأنيقة، أنسج عبارات لا يفهمها إلا هؤلاء الذين على نفس مستوى علمي، وأستمتع بنظرة التيه في عيون الآخرين، ثم أرسم ابتسامة ساخرة تجاه أحدهم، حينما يساءلني: ماذا تقصد من كذا وكذا يا دكتور؟

دكتور الأسنان الباكستاني ينخر في أحد ضروسي الملتهبة، يؤلمني جدا للدرجة التي تفصلني عن الإبحار في تلك الذكرى الجميلة.

ودعت ضرسي بعدما عانيت مع أوجاعه ليومين متتالين، و أنا صريع تلك الغرفة أخاف أن أخرج منها، فتلاحقني نظرات الأمن المتناثرة في شوارع "كراتشي"، والتي أطالع بناياتها وأتمحص شوارعها لأول مرة منذ قدومي، أتعجب شكل حافلاتها التي تشبه الأتوبيسات النهرية، ووجوه ناسها الذين أتخبي بينهم بلباسهم الذي ينكشف عني ما إن تحدثت، ونطقت بالعربية بدلا من الأوردية.

شيء غريب كان يختلج صدري غير اختلاف عادات الناس ووجوههم، وهو أن العلم يثبت أن الأكسجين لا يتغير من نسيم لآخر، لكني ها هنا، كنت أستنشق أكسجين غير الذي عهدته، كمن يغير منطقة لا يستسيغ نكهة ماؤها!

كانت الأنفاس تتحشرج في وسط القصبة الهوائية، كدعوة حرة من بلادي بأن يا هذا عُد إلي فإني إليك خيرزاد وزواد.

في شوارعي وأزقتي ستجد ملاذك وحلمك المفقود، أنا بلاد السِحر وبلاد "سَحر".

ها هي تعود مرة ثانية تزف جسدها إلى ما بين ذراعي، أسير بين الناس مُغمضا عيني، راحلا إلى فراشٍ حشوه من ريش النعام، وملمسه كملمس جسدها الذي لم ألمسه لكنني أستشعره وأرغبه.

لا يهمني إن كانت قد قيدت في زيجة تفصلها عني شرعا وعرفا وقانونا، أنا المجذوب بعشق لم ينطق، و أنا القابض بين ضلوعي على حب لم يطرح بعد.

ماذا إذا لو طرح؟

حينها سيعم الرخاء والسلام على العالم، إن التقاء حبيبات رذاذنا سيفرض غشاوة على شرور هؤلاء، تتبدل سوءاتهم إلى حسنات، ويصير الطالح صالحا، والعاهر عامرا، والعليل نبيلا، والرذيلة فضيلة.

أنا ومعشوقتي حلاً سيغرق العالم في نعيم وازدهار.

أفيق على لكمة في كتفي من رجل همجي، يهرول ومن خلفه الناس، ألعنه بلهجتي يا يلعن***1 أمك، ثم أرفع سروالي، وأكمل طريقي، أحاول استعادتها ثانية لأحضاني، لكن تلك اللكمة الملعونة، ذكرتني برفيقي الذي قبض عليّ متلبسا و أنا أستمع خلسة وسرقة لصوت العندليب "توبة".

تو افدت عبارات نهره وسبه ولعنته على مسامعي الآن، وأصبحت تلك العبارات هي القاصم العازل الفاصل بحدتها بين حياتي التي كانت وحياتي التي...

أصبحت "توبة" بدلا من "مَكين".

اشتقت اسمي الذي اختاره والدي بعناية وحرص، كان -والدي- حريصا على ألا أشبه أحدا ولا أكون تقليديا، وأن أكون مميزا واستثنائيا، وبعهده

1 - لفظ نابٍ قبيح.

ووصيته أمسيت وأصبحت، حتى بعدما صرت "توبة" كنت ذلك الصامت، الذي لا يتحدث كثيرا ويثير فضول الآخرين بغموضه، وبعباراته التي دوما تحمل من المعاني أكثر من معنى.

يتحير عقل المتلقي، يا ترى أيهما يقصد هذا المعنى أم هذا المقصد؟ كنفس حيرتي بعد القصف، أوكنا حميرا، نرعى ونحرث، أم دو ابا فقط ننقل ونحفظ أماكن حظائرنا؟

أنا الآن لا أجود بفكري عابثا في ثقوب الحقيقة، وارتضيت هذا الطريق... من البيت للحظيرة ومن الحظيرة للبيت.

ولولا هذا الهاجس الذي ينغص حياتي بأن أعود إلى موطني "مصر" لأصبحت حمارا مثاليا بحق!

آلة الحرب

أفغانستان التي توقفت عند عد ضحاياها بفعل آلة الحرب التي ركنت إلى الراحة تدريجيا مرفقة بعدم رفع شعار: النصر حليف للأمريكان، الشعور السائد هو أن المهمة لم تنجز بعد، أو لا يمكن أن تنجز أصلا في بلد - رغم أنه ممزق على شفير الهاوية، إلا أنه - صمد أمام إمبراطوريات الغزاة، فكان مقبرة لهم، سواء غزاة الخارج أو غزاة الداخل، إن أبشع ما يمزق الأوطان هو ذلك الصراع الداخلي!

فالاستعمار ورغم وقاحته و انعدام آدميته إلا أنه يصنع تكاتفا صلدا بين متناهضي الأمس، ويصطف لمواجهته كل الأطياف تحت لواء الوطنية والانتماء، لكن كيف هو الحال لو تكالب على وطن استعمار خارجي، وصراعات داخلية اتسمت بالخيانة وإعلاء مصلحة الأنا على المصلحة العامة للشعب؟

تلك هي المأساة، تلك الخيانة العظمى، تلك هي الجاسوسية بدون أن ننقل أخبارًا تضر مصلحة الوطن لحساب العدو، يكفي العدو أننا نأكل من لحوم بعضنا، ونتآمر على الوطن، وإن في تآمرنا أعظم الهدايا التي نقدمها لخصومنا دونما عناء منهم!

لم تكن تلك الأحداث التي تدور أمام عيني بمثابة المعلم الدنيوي فحسب، ولكني أسست منها قواعدا حياتية، أفترس بها أعدائي إن كان في العمر بقية.

علمتني الحروب معنى المؤامرة الحقيقة، وكيف تتوغل في صلب الخديعة، بينما مخدوعك مخدر بحلو الكلام، ونعومة المعاملة، علمتني الحروب ألا أضع أطنان ثقتي في أي من الرفاق.

إنهم وفي ذات يوم ربما يكونون شوكة في ظهري إن تفنن العدو بحسن معاملته لهم واستقطابهم.

النظرية الأولى في أن تقتل خصمك بحرفية وبدون أن تشارك في نو افير الدماء، هي أن تتلقن دروس المعاملة الماكرة، وأن تقذف الخوف في قلب العدو دونما أن تتحرك خطوة واحدة في تجاه الحرب، وأن تجعله يبيت ليله يتكبس بويلات غضبك وهولات قوتك، وأن تزرع الفتنة بينه وبين إخو انه، وتحصد قوة من فرقتهم، وتضمن فتاتهم بدل عصبتهم.

نحن الآن بعد عام ونصف العام من تنفيذ عملية الحادي عشر من سبتمبر أصبحنا في شتات موزعين على أطراف الأرض وعمقها، لا شمل يجمعنا ولا معسكرات تعيدنا لصلب القضية من جديد، نجح العدو في أن يهزمنا نفسيا قبل أن يهزمنا عسكريا، ومازال مدده العسكري يتوغل في صلب جسدنا.

آذار/2003 من إحدى ضواحي كراتشي.

لم يعد مريبا بالنسبة لي أن تقسم العاهرة بشرفها، أما المريب والعجيب بحق، هو أن تصدق قسمها!

تنبعث رائحة غريبة حولي وأما غرابتها هو في عدم مطابقتها للمنطقية الواقعية.

كيف يكون الكلام المنطوق ذو رائحة؟ وكيف تتفرز الأذن عفن تلك الرائحة!

تعطلت حاسة شمي الأنفية ها هنا، وصار الاستنكار من أذني، كأصوات صافرة الإنذار وقت القصف.

القصف الذي حلق فوق سماء بغداد ليعلن العدو عن نيته الكاملة في تصفية جسدنا الإسلامي العروبي ويزيح عن وجهه آخر سلاطين العزة والكرامة، وأما جيرانه...

كانوا "عباسيين" المبدأ.

ظللت أضحك بصوت هيستري، كان لدويه فعل المغناطيس في اجتذاب المعادن حوله، كانت النظرات تطالعني، وكأنني مجذوبا أحدث نفسي لمَا انفطر عقلي من هول الصدمة.

صوت التلفاز يعتمل في أذني باللغة الإنجليزية في نفس تلك اللحظة التي تُبث فيها مشاهد القصف الذي بدأ بشراسة للنيل من هيبة العراق وسط صمت كامل وخانع من شركاء العروبة.

فزعت من ذلك المقهى لاعنا كل فروض الولاء لقومية لا تنتفض لوجع أبناء العرق والدين، وجلست أردد، أُكلنا اليوم أكل الثور الأبيض. أُكلنا اليوم أكل الثور الأبيض.

يا ترى هل كان العراق هو ذلك الثور الأبيض؟ أم أن هناك في تاريخنا العروبي يوم أسود من ذلك الأبيض؟ من القادم يا عراق؟

القادم أسوأ مما نتخيل، وكل تلك الوعود التي يقطعها القائمون على صناعة قرارتنا إنما هي مسكنات عضلية، وتحاميل[1] شرجية يستمد حكامنا منها شرعية جلوسهم على مقاعد السلطة، بينما نجلس نحن على خوازيق الغرب، ثم نصيح كما صاحت زوجة عباس[2]:

"أبناؤك قتلى، عباس.

---

1 - لبوس.

2- قصيدة لأحمد مطر.

ضيفك راودني، عباس.

قم أنقذني يا عباس"

عباس اليقظ الحساس منتبه لم يسمع شيئا.

"زوجته تغتاب الناس"

صرخت زوجته: "عباس، الضيف سيسرق نعجتنا".

قلب عباس القرطاس، ضرب الأخماس بأسداس

أرسل برقية تهديد.

فلمن تصقل سيفك يا عباس ؟

" لوقت الشدة"

إذا، اصقل سيفك يا عباس.

ضحكت وخطو اتي آخذة في طريق لا يعرف مبتغاه، وسألت نفسي، ترى كم عباسا في وطننا؟

العدد لا يهم كثيرًا، إنا كلنا عباسيو المبدأ، طالما لم نمتلك سوى إصقال السيف الذي لا محل له من الاستخدام.

حلّ الأمريكان ضيوفا بالإجبار على أرض العراق، ينظفونها -كما يدعون- لكنهم يلوثونها بنظافة مستعارة، وأصيب الوطن بجرح عميق غير جروحه الآنفة، وما عدنا نقدر إلا على الكلام

محلل هنا، وسياسي هناك، واستراتيجي يتنبأ، ودبلوماسي يتوسط، وفي الأخير تنديدات، واستنكارات، ومناهضات، والعراق ينزف!

ماذا فعلت ردود أفعالكم بعدما أصم المعتدي أذنه، وصمم بكل همجية على أن يمارس ظلمه وعدوانه.

تذكرت كلمة أمي لما قالت: الميت لا يقطع إلا بنفسه.

صدقت أمي، الميت وحده من يعاني وحدة القبر، ووحشة الوحدة وجزاء خطاياه، أما ذووه بعد أن تسيل دموعهم ستجف عاجلا لا آجلا، وبعد قليل سيأكلون، وسيضاجعون زوجاتهم، وربما سيضحكون!

حتى أنا وتلك الثورة المشتعلة في صدري، لن أشعر بمرارة الميت -العراقيين- وسآكل وسأنام، وسأستمع للعندليب، "توبة! توبة إن كنت أحبك تاني توبة"

على مدار السنين حاولت أن أتشارك بغيرها -الأغنية- بما أنني بالفعل اقترفت الذنب، لِمَ لا أجدد إذن؟ قارئة الفنجان تناديني، وسواح تغازلني، ولكني فشلت.

تظل "توبة" وحدها من تتربع على عرش مسامعي، ويبدو أنني من هؤلاء المخلصين جدا للتوحد، لم أعشق سوى امرأة واحدة ولم أستمع إلا لغنوة واحدة، ولم أحارب إلا في سبيل قضية -أيضا- واحدة.

حتى قوميتي التي كنت أبكيها، مازالت تؤثر في دقات قلبي ما إن نطقت حروفها. وحلم التجمع والوحدة والعصبة والعروبة مازال يغازلني، كما يغازل أبا حمزة حلم تجميع زوجاته.

يا ترى هل سنجتمع نحن العرب في ذات يوم؟

وهل سيجمع "جامع" زوجاته تحت سماء بلد واحد؟

حطتني أقدامي داخل بهو المنزل العتيق الذي أسكنه، وأحتمي بجدرانه من غدر الاستخبارات التي تصطادنا كالأرانب بين الحين والآخر، فقط سقط الزعماء وأصبحت قيادتنا في السراب، واجتماعنا مُفككا بقوة حلمنا في توحيد الصفوف، وأصبحنا بلا تدريب، وبلا تدبير خططي، وبلا شموخ يكسبنا ثقة نرتاحها.

وتبقى النية في صدور هؤلاء ممن حاول، ولم يجد الدعم الكافي لأن اليأس خيم مكان اليقين.

ولأن يقيني أصبح مُهلهلا كبواقي القماش التي ترقع بها ستائر حجب الرؤية، لم أفكر إلا في مصلحتي الخاصة، ولم يعد للإيثار مكانا بداخلي.

وكيف أجد له مكانا؟ والأمريكان قد سيطروا على كل مساحات تحركاتنا، و أنفلت منا زمام الأمور؟ لن أكون ذلك الغبي الذي سيواجه التيار بكل قوته مُتخيلا بأنه يحمل المعجزات تحت إبطيه.

تمنيت حينها لو أصرخ في أذن هؤلاء الذين يحاولون قائلا: أنتم بشر عاديون، لستم أنبياء، ولستم من أصحاب المعجزات، أفيقوا يرحمكم الله. أفيقوا!

استفقت أنا على تلك القاعدة المهمة والتي كونت بداخلي رضاي بقراري الذي عزمت تحقيقه عندما رن هاتفي وكان المتصل هو "عبد الله" أو "ميزان بايو" يحملني أمانة مهمة، ويخشى عليها الضياع، بينما هو متجه في طريقه إلى أفغانستان، ويخشى أن يقع في قبضة الجهات الأمنية.

قلت حينها له: لِمَ أنا بالتحديد؟

أجابني بصوت باسم: لأن القادة اختاروا شخصك لتحمل تلك الأمانة.

-ولكن، ماذا لو صارلك مكروه- لا سمح الله-.

-تركت لك وسط الظرف المغلق ورقة، أشرح لك كل ما سوف تفعله إن تم الإيقاع بي من كلاب الاستخبارات.

-ولماذا لا تخبرني الآن؟

-تلك هي الأوامر، وليس من المصرح لك أن تقرأ ما في الورقة إلا إذا وصلك خبر القبض علي -لا قدر الله-.

قلت مبتسما: وماذا إذا استشهدت؟

قال في حنق يحاول أن يخبئه: لنا ولك الجنة بإذن الله.

أغلقت المكالمة بعدما حددنا موعد ومكان تسليم الأمانة -كما سماها هو- ولكن سؤالا ما بدأ يطاردني فأهرب منه، ولكنه كان سخيفا لزجا، ولايزال يحاوطني ويؤرقني: ترى لماذا وثق في القادة واختاروني لتلك المهمة؟

رفعت سروالي وبدأت أتجول في الغرفة محدثا نفسي بصوت عال: ألا يعتقد هؤلاء فينا الخيانة؟ ألا يتوقعون الغدر؟

وفي الحقيقة أنني أوقفت تفاعلات الغدر التي تزايدت حدتها في صدري، وتلاقت مخرجاتها مع ذلك المبدأ الذي دشنته حيث إعلاء المصلحة الشخصية، والانفصال نفسيا عن تلك الجماعة التي لم تلبِ تطلعاتي واحتياجاتي الفكرية والاجتماعية والنفسية.

لم أنكر أنني كنت أتوقعهم سوف يتسيّدون، فخطواتهم السابقة كانت توحي للجميع بذلك.

حلم الدولة الجديدة، ومشروع الخلافة الذي كنت سأنال فيه مكانا حساسا يجعلني أقبض بكف يدي على كل هؤلاء الذين آلموني قديما، ثم

أمتلكها، نعم سأمتلكها، حتى لو أصبحت في نظر نفسي وفي نظرها، "حضرة العمدة" الذي طلق الزوجة من زوجها! وهكذا تسطر قوانين العشق.

هناك عشق أنيق وهناك عشق دموي، أما الدموي: هو ذلك الذي ينتهي دوما باقتتال لأن أحد طرفي معادلة العشق لم يرضخ، أو أن الظروف قد تعاونت على كليهما، وأهدرت حبا كان لابد أن يطرح ويسمو.

أنا العاشق الضحية، أنا الابن اللقيط للظروف، و أنا صريع التجارب، و أنا الذي ما تخيلت أبدا أن أكون هنا.

ومن هنا انتقلت بعد يومين إلى هناك، حيث موعدي مع "عبدالله".

التقاني عند مفترق طرق في وسط "كراتشي" ولم نقف إلا بضعة دقائق، سلمني فيهم مظروفا، فلما أمسكته وتحسست ملمسه عرفت أنه يطوي مادة صلبة.

ابتسمت في وجهه واطمئن الرجل لصفاء البسمة الخانعة لولاء الجماعة، لكني كنت قد نويتها، أن أحرك محركات الغدر التي ارتكنت في نفسي وبدونها لن أنجو مما أنا فيه.

كنت أناظر خطوات أقدامي أسفل مني وألتقط أنفاسي واحدا واحدا، وأشق هبوب الريح التي تقابلني حتى أصل لغرفتي؛ ففيها سوف يرتاح الأمن متعمدًا على ارتواء فضولي..

فضولي الذي حدثني أكثرمن مرة أن أفض بكارة المظروف، وألتهم ما فيه، لتهدئ نفسي قليلا ويبدأ عقلي في ترتيب الخطة التي سوف تكون!

ولكن من الواضح أنها سوف تأخذ وقتا كي تكون، شعرت بأن هناك حركة غير عادية أسفل ذلك العقار العتيق، توقعت المؤامرة، وشممت رائحة الكمين.

رجلان يتحاوران أمام المبنى، وثلاثة غيرهم ينتظرون في سيارة لا تتناسب مع حجم اقتصاديات المنطقة التي أسكنها، حينها تشنجت عروق سيقاني، بعدما أصدرت أمرا بالرجوع إلى الخلف، وحينها انتبه هؤلاء بأن الصيد قد اقترب من الشباك، ورغم أن قلبي كان يقفزبنبضاته المترامية أمامي من الخوف والرعب، إلا أنه كان اختبارا جيدا جدا لي لإثبات أنني مازلت أنعم بلياقة بدنية وسرعة بديهة وثبات انفعالي قد أحسد عليهم، جعلتهم يلهثون خلفي، و أنا بين الشارع والآخر، أتنقل! حتى سنحت لي الفرصة بأن تعالَ.

لولاي ستصبح في خبر كان، وكانت الفرصة في دراجة بخارية، عليها رجل قد خرج من قبره خروجا مؤقتا لمهمة ما! و أنا لا أعلمها، أزحته بدفعة واحدة، واستخدمت خبرتي في المراوغة.

كانت عيناي تسيلان بدموع لا هي دموع فرح ولا حزن ولا خوف، بل كانت إجبارية لأن الهواء الذي كان يلامس عيني يداعبهما، ثم تتطاير القطرات هنا وهناك! ولأن هناك في شوارع "كراتشي" تضيق الشوارع، وتزدحم كعشوائيات بلادي كنت أنا الأقوى في تلك المواجهة، بجانب الفرصة التي منحتني الحياة، و اصطفت معي متعاونة تضاريس البلد ومعالمها الحياتية! ونجوت.

لكن إلى أين؟

عزمت على تغيير ملابسي.

اشتريت لباسا مغايرا حتى لا ألفت الانتباه في الشوارع، ومن المؤكد أن الكمائن المدنية انتصبت في كل شوارع كراتشي، حتى احتميت بمكان ينافس الهدوء على لقبه، كان ممرا بين بنايتين ضخمتين، تتراص فيه الكراسي، ويجلس نفر قليل، كل منهم في همه وخلوده الذي أخذ عقله.

فكرت حينها ترى هل كان أمر ذلك المظروف غدرا من القادة، إن هم أرادوا تسليمي ككبش فداء للجهات الأمنية في مقابل رسالة ما يبتغونها؟

زاد شعور الغدر تجاههم في صدري، وبدأت أوثق نفير الغدر من ناحيتي أكثر.

طلبت بلهجة كردية ركيكة كوبا من القهوة، وبدأت بعدها متلصصا أفتح المظروف، و أنا أر اقب بعيني كل من تلتقي عيناه وكف يدي.

وجدت قرصا مدمجا، وشريط فيديو، وورقة مغلقة.

هممت لفتحها وقراءة ما فيها:

الأخ الإعلامي المحترم.

نشكر صدقكم معنا فيما طلبنا منكم، وستجد في ذلك المظروف المادة التصويرية اللازمة لحملتك الإعلامية والتي تثبت صحة انتساب أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى تنظيمنا وتنفي تلك الأقاويل والإشاعات التي دسها المغرضون بين صفوفنا بهدف النيل من يقينهم و إيمانهم.

مع و افر التقدير والتحية "رمزي ابن شيبة"

حينها فهمت محتوى الأمانة ومدى أهميتها، وخطرت على بالي فكرة أولية للغدر، والمراوغة، إن وقع "عبد الله" في مكروه، حينها سوف أتأكد أنهم لم يرغبوا في تسليمي للجهات الأمنية، أما إن عاد يطالبني بالأمانة، هذا معناه أنهم بالفعل حاولوا توصيل تلك الرسالة للأمن، ومؤكد أنهم لديهم

نسخ أخرى منها، وما كنت أنا إلا هدية للأمن فوق تلك الرسالة غاية الأهمية، وهنا كانت أهمية رقم أبي جعفر عندي.

اتصلت عليه طالبا منه المساعدة، وكنت على يقين بأنه لن يتذكر سوء معاملتي له لسببين:

الأول: أنه يريد أن يتعلق بأي قشة تعيد له الأمل، والثاني: أنه صاحب الخلق الذي لا يرد طلبا لذي حاجة.

وما توقعته لاقيته، بعدما وصفت له مكاني وعدني بأنه سيصارع الطرقات ليصل إليّ بعدما شعر من نبرة صوتي المتوترة والتي تعمدت إظهارها بأنني أحتضر مع يقيني المذبذب، ورسمت خطة تقذف في قلبه الغدر وتوخي الحذر منهم.

أعلن عن حضوره بربتة من كفه على كتفي على حين غفلة مني، ولكنها غفلة مصطنعة، فقد شممت رائحة خطواته تقترب، تظاهرت بالفزعة، ولحقني هو قائلا:

-أنا "دهام دهام" اهدأ.

-أهلا يا رفيق الجهاد.

ثم اعتصرت الكلمة في حلقي وقلت: الجهاد الذي...

قلتها و أنا أبتسم ابتسامة ساخرة.

قالها بشغف وفضول: ماذا بك؟

-القاعدة أرادت الإيقاع بي.

-كيف؟

حملوني أمانة، وقالوا: لا تسلمها لأي مخلوق، إلا إذا جاءك خبر القبض على "عبد الله". ولبيت مطلبهم، وعند عودتي لمنزلي وجدت رجال الاستخبارات تتناثر أسفل العقار.

شممت الغدر ولذت بالفرار.

-ما الأمانة وكيف هربت؟

-راوغتهم بين الأزقة، ولا أعرف محتوى الأمانة فقط سقطت مني و أنا أهرب، ولكن يبدو أنها رسالة أراد القادة توصليها للأمن ومن فوقها أنا كهدية لهم حتى لا يشعر الأمن أن هناك شيئا مفتعلا.

-ما هذه الحيرة؟ ما هذا التخبط؟

ثم وضع رأسه بين كفيه معربا عن تأثره بما وصلنا إليه.

كنت حينها لا أريد إخباره بأن المظروف معي، وكان كل همي هو أن أشحذ الكره في صدره تجاههم حتى يمكنني استخدامه جسرا لتنفيذ مخططي، وأول المخطط أن أجد مكانا أختبئ فيه، وكان منزله!

منزل متواضع رتيب كرتابة تلك الأيام على نفسي، فقد صارع النظام فيه روح الكآبة والحزن التي خيمت على تفاصيله، في كل ركن كنت أرى فتورا وأسفا.

أغلقنا علينا باب غرفة على ما يبدو أنها مخصصة للقراءة والصلاة وقال: تلك هي غرفتك حتى يأذن الله في أمرنا شيئا.

استأذنت منه باستخدام حاسبه، ولم يبد أية غضاضة، وما أن أغلق عليّ الباب، حتى بدأت في تشغيل القرص المدمج. ورأيت وجوههم وحواراتهم وتفاصيل أحداث العملية بكل خطوة وترتيب مسبق.

حينها عرف قيمة الكنز الذي أطويه، وأن المساومة عليه مقابل مبلغ مالي ضخم سيغطي لي حياتي القادمة بكل تأكيد في أي من البلدان التي سترحب بقدومي طالما أنني أملك لغة تسيير كل العقبات -الأموال- أغمضت عيني وقتئذ والأحلام تداعبني محتميا بصدرها، صدر سحر!

غوانتانامو

مصحف وسجادة صلاة وكتاب رفيقي المغمور، وسرير فعّلت فيه خاصية الميزان، ومكان رغم ضيق حجمه إلا أنه اتسع ليحمل أوجاعي كلها!

لم أكن في يوم ذلك الرجل الذي يهتم بالتفاصيل، وكانت ذاكرتي بالكاد تسعفني لأتذكر بعذاب ما حدث لي منذ شهر أو شهرين! لكن ذلك تغير الآن! صرت أكثر فطنة وحكمة ويقظة و انتباه، وصرت مغرما بالتفاصيل للدرجة التي كانت تجعلني أعد خطوات سجاني في كل ليلة، و أقارن بينها وبين خطوات زميله في نوبته الصباحية، وأحسب مساحة الخطوة، وطول الساق!

تعلمت أن الهواء نعمة لا يعرف قيمتها الكثيرون، وأن زحام الشوارع والطرقات حلم بعيد المنال! حلم ليس كتلك الأحلام التي كنت أهواها في زمن مضى! هو الحلم الأكثر صعوبة وإرهاقا.

كل الأحلام تعتمل في رؤوسنا بمنهاج حياتي قد نتبعه بحثا عنها، ثم نصل لمرحلة قد تتحول فيها تلك الأحلام إلى و اقع بعد اجتهاد ما، أو مثابرة

وصبر، المهم أن تحقيق الحلم بيدك، أنت من تملك تسريع خطواته أو كمدها ومن ثم وأدها.

أما حلم "الخلاص" أو "الحرية" هو لا يتوقف عند عوامل الاجتهاد والكفاح! بل يتوقف عند مزاجية "أسيادنا"!

كنت سيدًا على نفسي لكن ذلك عندما كنت أملك زمام نفسي، أحكمها، أقودها! أما الآن، أنا رهين موعد لا يعلمه إلا الله.

الله الذي لم ينصرنا، وربما أيضا لن ينصرنا ما لم نغير من أنفسنا.

النصر ملك للأمريكان، هم فقط من يملكون مصائرنا!

مائة وخمسة وعشرون "١٢٥" هكذا أصبح اسمي، وأصبحت كنيتي، وحتى لا أنسى من أنا؟ كنت أسترجع تلك التفاصيل المهمة في حياتي دوما.

أنا "جامع" أبو حمزة! نعم أنا هو، وهو أنا، رغم أنه ليس فيه مني كثير، وصرت لا أعرف هل أنا هو حقا؟ هل هكذا أصبحت أنا؟ من فينا الأصل ومن المستحدث؟

أصبحت روتينيا بروتينية ذلك المعتقل، حفظت توقيتات مناوبات سجاني ومواعيد انصرافهم، بل وإجازاتهم أيضا، عرفت قصة حياة جاري في الغرفة المجاورة، على اليمين، وكذلك على اليسار، وكذا من هو في آخر الصف في الجهة المقابلة لي، أما ثالث الصف من جهة الباب

المؤدي إلى مخرج الطوارئ، المعتقل رقم 421 كان دوما صامتا، لم أعرف من هو وما حكايته؟ وكذلك السجان الذي كان يمرنا في نهاية كل أسبوع، ثم يقول بإنجليزيته: "صحف كتب" هل تريد كتبا؟ حتى تلك الكتب حفظتها، وعرفت ما فيها وما عليها! وفي كل مرة أنهي فيها قراءة كتاب ما، كنت أعيد قراءة كتاب صديقي المغمور! ثم أتسائل: ترى ماذا كان يقصد أبو جعفر بذلك العصفور الأول؟

ورغم أنني وصلت من الثقافة والاطلاع إلى ما لم أكن أتخيله، ستظل قصة العصفور الأول تؤرقني كأرق جندي الحراسة ذي الشعر الكثيف! في كل مرة كان يطل برأسه البدين من نافذة باب غرفتي. كنت أحملق فيه، ثم أبصق على الأرض، لأنني لم أعد قادرا على حساب خطو اته! كان رجلا غير متزن، وغير منضبط! في حالة أرق مستمر، لم تعد خطو اته ثابتة بالشكل الذي يسلي ليلتي! أو ربما كان يقصد إيذائي!

أتراه يقصد؟

ربما ولِمَ لا؟ كل شيء في تلك الدنيا هو محض القصد، أو اللاقصد ولكنه منوط به قصد آخر، فحلمي الذي تمنيته في أن أجمع زوجاتي، وأن أكون جامعا اسما وصفة لم يتحقق! ثم فجأة وجدتني المعتقل رقم ١٢٥ ولا أمت بشيء لذلك المدعو جامعا!

كنت أروم جمع النساء، ثم وجدتني شغوفا بجمع الأرقام، والسباحة في التفاصيل الحسابية المعقدة، حتى إنني وصلت لدرجة أنني أعد أنفاسي!

العد فضيلة تفتت الوقت، وتلهي العقل عن التفكير، وتزيد من حواس التأمل عند البشر.

تذكرت في صباي لما كنت أتضور جوعا وأصيح في أمي: إني جوعان، جوعان يا أمي.

وتقول هي مُهدئة لي: ها أنا اقتربت من إنهاء الطهي، عُد حتى **10** بشكل منضبط وستجدني أمامك بالأطباق، وعلى ما يبدو أن وجع الانتظار ارتبط عندي بهواية العد.

صرت أعد كل شيء، لكني لم أُفعل حالة الانضباط، ككل شيء في هذا العالم غير المنضبط.

أنا مازلت مرتبطًا بالعد على أمل "أن تجيء أمي بالطعام" ولكن طعام اليوم طال انتظاره، وقد أفنيت فيه عددا لا نهائيا من الأنفاس والخطوات والحروف المكتوبة في تلك الكتب!

أصبحت أعد كم مرة عددت فيها أشياء لا داعي منها ولا حاجة لي بها!

أتراني جننت؟ أم أن أمي لم تحسن تعليمي فنون الصبر؟

آآه يا أمي، إني اشتقت مذاق طعامك، وسئمت ذلك الطعام القميء رغم جودته في أول مرة تذوقته فيها! ولكني لا أحسن أكله، لأنني أنشغل بعدّ حبيبات الأرز في الصحن بدلا من أكله!

يصيح فيّ جندي الحراسة المناوب في كل مرة: كلّ أو..؟

أما عن "أو" فيها ما فيها من عذاب خيالي!

لم أتخيل يوما أن أعش حتى ذلك اليوم الذي يحرص فيه حارسي في المعتقل على حياتي أكثر مني!

كل هؤلاء الجنود الأمريكان هنا لأجل الحفاظ على حياتنا! لا من أجل حبسنا وتقييد حرياتنا.

الجدران السميكة ستقوم بتلك المهمة بكفاءة عالية، ستمنعنا من الهرب، والنظام القاسي سيجعلنا نطرد تلك الفكرة من الأساس! حتى لا يتبقى لنا سوى التفكير في الانتحار!

جندي ذهاب وجندي إياب كعقارب الساعة، لا يمكن أن تتفاوت حركتها.

أصبحت أعتاد تلك النظرة التي تجوب أرجاء الغرفة كلها بين كل تسع عشرة ثانية وما يليها، زمن دوران الجنديان في الطرقة التي تحتضن غرفتي.

غرفتي! آه من غرفتي، ورغم أنني بدلت من الغرف الكثير، إلا أن تلك الغرفة كانت الأكثر تأثيرا في نفسي، وربما غرفتي في دائرتي أيضا حيث حضن خلود!

قلبي يتألم حالما أتذكرها، فقد نهرتني في آخر مرة، نهرتني وسبتني سبابًا لم أكن يوما أتخيل أن يقوله لي أحد، وكل هذا لماذا؟ لأنني دعوتها بأن تقيم معي أن وزوجاتي الثلاث! ومن ثم أجمعهن.

ما الضير في أن رجلا مثلي أراد أن يجمع شمل عائلته؟

كل ما أردته جمعهن! يقولون: إن لكل منا نصيب من اسمه، بالله ماذا عساي فاعل في دنياي و أنا "جامع"؟

تذكرت توبيخ "خلود" وهي تنعتني بالأناني، الهوائي، الغوغائي! كانت صدمة عويصة أخجلت نفسي أمام نفسي.

الرجل منا يفقد الود ويكفر بالعشير، ويهوى الهروب من كنف تلك المرأة التي تجر عليه أذيال السب، أو حتى تنهره وتكاشفه بأخطائه، إذا وبعد أن أهانتني كيف سأضع عيني في عينيها؟ و أثبت بملامسة الواقع فوادح خطئي الذي لا أنكره؟ ولكن ألا من طرق أخرى سماتها الذكاء تؤلمني ولا تنفرني؟

هكذا هن بعض النساء، يؤلمننا دونما أن نمسك عليهن ثغرات الوقوع في الخطأ، يتفنن بالمراوغة الكلامية وجلدنا و إفزاع ضمائرنا كما فعلتها معي "بدور" لما قالت:

- يا رجل لم ترفضه امرأة، أنا لست بر افضة عشرتك، ولكني متمسكة بمبدئي ولن أتنازل عنه، ولن أقدم جديدا على طاولة القرب، طالما أن زوجاتك تمسكن بحقهن المشروع بألا يغادرن دائرتهن.

هل ستجبرني على الرحيل لأنني الأضعف، الأكثرحاجة واحتياجًا؟ فزعت في تلك اللحظة من مقعدي وقبلتها وضممتها و أقسمت أن حبي لها كان سببا واضحا في دعوتي لها بالتنازل عن موطنها، و أنه لا دخل بضيق حالها، ولا بحالة بلادها في صلب مطلبي، وغادرت بيتها و أنا أعد على أصابعي، أثني الوسطى بعد السبابة و أقول: ها هي بدور راحت مع خلود.

لم يقتنعن أنني أحلم بأن أعيش بينهن، وبين أبنائي وبناتي، حتى غالية عاندتني وناطحتني بعدما علمت بموقف خلود، ارتأت حينها بأنها لا تقل لا مالا ولا جمالا ولا جاها عنها!

قالت: إن كنت تريدني أن أفعل، لجعلت خلود فاعلة، لماذا أنا من تضغط عليها بأن تعود معك إلى موطنها وموطنك؟

انتفضت قائلا: بل موطني وموطنها، وإن كنت تحسبين أن دعوتي لك فيها تنازل لقدرك فأنتِ واهمة، وكل ما هناك أنني "جامع" لشملكن تحت سماء بلادي.

أعجزتني عندما ردت قائلة: إذا لنجد أرضا محايدة تفصل بين رغباتنا وتحقق حلمك.

خرجت حينها و أنا ألملم نثرات حلمي من أرجاء الطرق، أو يعقل أن أحتكم إلى بلد أجنبي، ليحل أزمتي وأجمعهن تحت سمائه؟ ولماذا لا تتنازل أحدهن وتقبل بمبادرة التقدم، دون الكبر والأنا؟ لماذا لا تنظر عاقلة فيهن للمصلحة العامة وأهمية العصبة وفائدة التوحد داخل بيت كبير يجمعنا؟

كانت آخر آمالي المتبقية تتجه ناحية "أم دنيا" أو كما كنت أغازلها دوما قائلا: يا "أم الدنيا".

حبيبتي التي خطفتني منذ أن وقعت عينيا عليها، لم أقاوم سحر جاذبيتها بعدما أفقدتني صوابي وسجلت هدفا عشقيا في شباكي العتيدة.

كنت متيقنا من أن انتصاري سيتأتى من عندها.

هي "انتصار" الحنونة الرقيقة التي لا ترفض لي مطلبا ولا تتركني والغضب رفقاء في ليلة واحدة إلا وجاءتني تراضيني وتمسح على رأسي بدلالها الفتاك.

كانت فاجعتي لما وجدتها تصارع الموت مريضة ممزقة من فرط الألم، وجدتها تأكل بعضها ببعضها، وارتسمت هالة سوداء أسفل عينيها، وتشققت بشرتها، وكأن الماء لا يزور حلقها،

انتفضت وجلست تحت قدميها، أسائلها: ما الذي حل بك يا بدر البدور؟

ردت بصوت متقطع: احتار الأطباء بما في، الأعراض لا تؤدي لمرض بعينه؟ لا أعرف هل أن مسحورة؟ أم أن خطبا ما حل ببعضي، واستباح الألم انتهاك كلي؟

تقطعت آخر آمالي، كنت قد عزمت أن أسوق مطلبي لها، وأن تنضم برفقتي ومعنا ابنتنا "دنيا" حيث دائرتي، وأجمع شمل اثنتين منهن بدلا من اللاشيء، لكن السراب قد حلّ والحلم قد ولى والأمل قد فلّ.

أنا الحلم وهن الضائعات اللاتي أبين أن يجتمعن ككل شيء في هذا الكون يرفض التكاتف بفعل النفس والأنا.

حلم اللا تقسيم في البوسنة قد زال بإبرام اتفاقية مذمومة لعينه، تنصر الظالم فوق نصرته على المظلوم، وجمعنا قد تفكك فيها بعد قرار حل

جماعتنا وترحيلنا من البوسنة، وهذا الفكاك الثاني في حياتي، ثم دمار القاعدة وتناثرها كأشلاء من المحيط إلى الخليج، ثم سقوط بغداد الذي هز جمع العرب، وفرقهم أكثر على فرقتهم التي كانت، ثم وعد بالتجمع لم نتفق بتوقيته أنا "ودهام" و"توبة" و"طيشة"!

كلهن رفضن، كلهن كن مع التقسيم لا الوحدة.

كلهن جاهدن لتشتيتي ومناهضة حلم العزوة الذي كنت أتمناه.

وكم من أمنيات دفنت تحت أقدام الواقع المرير، وكم من أحلام أجهضت ثم أصبحت أسيرا لا حرا طليقا!

يقول صديقي المغمور في كتابه المغمور أيضا "لو لم تتحرر أحلامنا من قيود الخيال، لسوف تتحول حياتنا إلى خيال تحت القيود"

وها أنا أصبحت مقيدا بخيالاتي،مقيدا بمجموعة من القوانين الصارمة، التي أرفض تطبيقها؛ لأنني لو فعلت لاعترفت ضمنيا بمشروعية قوانينهم وبأحقيتهم في الفرض وخنوعي للتنفيذ.

أنا لست بمجرم حرب أو قاتل محترف، كل ما فعلت أنني آمنت بقضية ديني، وحاربت لأجلها! ورغم أنني كنت أخاف على حياتي جدا لكني كنت في بؤرة الخطر، وعلى بعد أمتار من الموت!

الموت الذي أتمناه الآن ولا أجده! لأن عيون هؤلاء لا تغفل عني فتتركني أستسلم له قبل أن أستسلم لقوانينهم القاتلة، اللا مميتة.

هي تقتلني، ولكن للأسف لا تميتني، وهذا هو الوجه النبيل للمأساة، أننا وصلنا الحد الذي أصبحنا نرى فيه الحياة مماتا، والممات خلاصا.

العد قد بدأ

كنت أحلم في صبايا أن أمشط شعر لحيتي بأصابعي فأغرسهم بداخل ذلك الشعر المقوى ليختفين بداخلها، ثم أشد أصابعي لأسفل تجاه صدري لتنفك العقد رويدًا رويدًا، وإن في الأمر متعة خاصة عندي وعند هواة اللحى.

يغيب عقلنا شرودًا وتزيغ عيوننا في تلك اللحظة التأملية، وتنساب أصابعنا بحركة لا إرادية ممشطة لحانا، ومهذبة إياها، ويا ليت كل العقد الدنيوية تنحل بهذه الأفعال، متى مُدت إليها أصابعنا، حُلت العقد، و انزاحت الغمة.

كنت أتساءل يومًا بعد يومٍ، ترى لماذا خانهم "توبة" وقرر أن يتلاعب بدليل براءة القاعدة أمام العالم؟ وفي نفس الوقت كنت أضحك بصوت مرتفع، فإن دليل براءتنا أمام العالم، هو نفسه دليل تورطنا أمام نفس العالم!

أوَ جاء ذلك اليوم الذي يجاهد فيه المعتدي لإثبات أنه من قام بالاعتداء؟ المحللون والسياسيون يحاولون تبرئة ذمتنا من التنفيذ،

بينما قيادتنا تحاول بكل الطرق إثبات شروعنا في التنفيذ والتخطيط المسبق لتلك العملية!

ربما في إثباتهم هذا إنقاذ لهيبتهم في نظر المجاهدين، وأنهم لم يكونوا يومًا أدوات في أيادي الإدارة الأمريكية، وفي الأمر كثير من الحفاظ على ماء وجوههم التي بالفعل لطخت بفعل الخديعة أو المؤامرة، تذكرت حينما سمعت صوت أحد الجهاديين وهو يسب "خالد شيخ محمد" بعدما تسرب خبر القبض عليه وانضمامه لقائمة معتقلي القاعدة في "غونتتامو" وظل ذلك المجاهد يقول: اللعنة عليكم، ضيعتم هيبتنا وتلاعبتم بقضيتنا وكنتم وكنا لعبة في أيدي الخنازير، اللعنة، اللعنة، اللعنة.

عرفت حينها أن "شيخ محمد" ونكس رأسه، ولم يفعل أية ردة فعل طبيعية للرد على ذلك الاتهام البشع! وهو نفسه الذي جاهد مرات ومرات في أن تصل المادة الفيلمية لقبضة الرأي العام مذاعة عبر أحد الأفلام الوثائقية، ولكن أُبطلت محاولاته بعدما تسكع الشيخ "توبة" على أحلامهم وأحلامنا، وفضل مصلحته المادية ومطامعه فوق كل شيء، ولكن أيناه توبة اليوم؟ لا أعلم، ولا أحد يعلم... وأبو جعفر الذي كان بصحبته في الأيام الأخيرة يقول إنه لا يعلم، من يعرف إذن؟

يقول المعتقل "٣١٣" في ثرثرة مسائية لا داعي لها من داخل محبسه الذي يجاور محبسي بفارق غرفتين، إن توبة قد تم تجنيده لصالح الأمريكان، وهذا أغلب الظن! وإن صدقت توقعاته، وصدق حدسه، وصح تكهنه، فلماذا لم تعلن القاعدة خبر انشقاقه وحظر التعامل معه إن ظهر في أي وقت؟

في كل شهر يتو افد علينا عشرات المعتقلين الجدد، والمحملين بالأخبار الجديدة، والتي تتسرب شيئًا فشيئًا، وبهذا التسريب سوف تضعف نفوسنا أكثر وتقل عزيمتنا وتحبط هممنا! كما أُحبطت من قبل عندما أخبرني ذلك المحقق في أول يوم عرضت فيه على هيئة التحقيقات، وقال بكل ثقة وهو يتكئ على مقعده ويضع ساقًا فوق فخذٍ: أنا أعرف كل شيء، أبِو جعفر قد تم القبض عليه، وأصبح عميلًا مزدوجًا، ثم تقطعت كلماته بشكل ساخر واستهزائي وقال:

- أبو جعفر صديقك الصدوق؟ ها قل لي الآن ما تود أن تخبرني به، أو على الأرجح فإن كل ما تود أن تخبرني به هو ما أريد أنا معرفته؛ ولاسيما "أين ابن لادن"؟

كانت كل إجاباتي حينها لم تتعدَّ حدود الصمت القاتل، رغم بشاعة التعذيب والإهانة، ولكني كنت عاقدا النية بأن المؤامرة والتخوين

سيكونان سلاحا له، وسيحاول بكافة الطرق تشكيكي في كل شيء حتى في ديني ومعتقداتي نفسها.

لم تتحقق الأخبار من وضع أبي جعفر بالتحديد.

هناك من قالوا أنه بالفعل انضم للاستخبارات الأمريكية، وأن زوجته هي من أوشت بخبر انضمامه إلى قيادات القاعدة، وهناك من يقول إنه قتل، والأكثر ظنا وتوقعا، أنه انضم لفراش الشيخ "طيشة"!

"طيشة" الذي حاول وجاهد للتواصل مع المكتب الإعلامي للقاعدة، ولكنه فشل.

ليس لشيء سوى أن القاعدة كانت تشك في كل شيء، فأي من رجالها المختفيين كانوا يتعرضون لاختبارات قاسية لمحاولة التأكد من أنهم لم يتم تجنيدهم لحساب أي جهة استخباراتية، عاد إلى الرصيف مرة أخرى، ولكنه عاد مجذوبًا بحق، وقد وصلني العلم من آخر معتقل التحق بكتيبة "غونتنامو" أن أبا جعفر قد سافر بطريقة غير شرعية لتنظيم عمليات مهمة ستقوي مركزنا في الشرق، وأن مركز التنفيذ سيكون حيث وجود الشيخ "طيشة"، وفوجئ به وقد مسه الجنون، وعاد -أبو جعفر- بخفي حنين، يزاول مهامه وحيدًا في بلادٍ لم يعتد طباعاها، ومن هناك تم تجنيده لصالح الأمريكان، الذين تتبعوا أثره وأحكموا قبضتهم عليه فوق الأراضي المصرية.

الأخبار متضاربة ومتداخلة ولا أحد يؤكد تأكيدا تاما، وأغلب الظن أن مداعبة نسائم الحرية هي وحدها من ستؤكد كل تلك الشكوك!

سبع وستون، ثمان وستون، تسع وستون.

خطوات الحارس الأشقروقرقعة حذائه ملامسًا سطح الأرض، تجبرني أن أعدها، بينما أذاكر مصير الجماعة، و أتخيل نفسي خارج هذا المعتقل الذي أصبح جزءا مني وأصبحت جزءا منه!

لم يختل العدد على لساني، ولم تختل الذاكرة في تجميع وربط الأحداث ببعضها البعض! وكذلك لم يغب وجه الشيخ "نايك" عن عيني، هو أيضًا تغيب، ولكن علمه قد وصلنا.

علمنا بأنه عاد لبلاده وأسس شركة كبيرة للمقاولات، وظل هذا الوضع الغريب علامة استفهام في أنظارنا جميعًا! كيف لمجاهد في القاعدة أن يتحرك بسهولة ويسر ويعمل في قطاع الأعمال الهندي تحت أنظار الجميع بدون أي مطاردات! الشيخ "نايك" قد غفلنا جميعًا أو قد غُفل هو!

غفت عيني قليلًا وخيالي سبح بأحضانٍ تضم زوجاتي.

ها قد حان الآن موعد الرومانسية، مددت جسدي و ابتسمت، ووضعت يداي على صدري، وبدأت أتذكر أيام العز، وأحلامي العزيزة.

ورغم أنني أعرف أن تلك الساعة تنقلب عندي بألم شديد، لأنها تنتهي بتساؤلات سمجة، مللتها وملتني وهي: أين أنا الآن؟ أهذا أنا؟ ومتى الخلاص؟

ولكن الروتين قاتل ومذهب عتيق في أيام الوحدة، لا أحيد عنه ولا يتركني وشأني!

قبل صلاة الفجر بساعتين لابد من ذلك الخلود الحسي، مائة وأربع وخمسون، مائة وخمس وخمسون، مائة وست وخمسون.

لايزال لساني حاضرا بعد خطوات الحارس، وعيني تطالع عينه في كل مرة ينظر لي من خلف نافذة الباب الصغيرة، وكأنني أقول له: ها أنا مازلت حيًا ومازلت أتابعك و أتابع حراستك لي!

أمسكت بكتاب صديقي المغمور وقرأت فيه عبارة ألجمتني فعليًا.

في الركن الأيمن من الصفحة اليسرى، في منتصف الصفحة تقريبًا يقول: أن تحيا بعقلك وسط من لا عقل لهم هذا هو قمة الجنون!

أثنيت على عبارته وأحببت مضمونها والذي يطابق مصير حياتي منذ أن بدأت حتى الآن! ثم في مستقبلي الذي مازلت أجهله.

أنا لو كنت بعقلي ما كان لي هنا وجود، ربما كنت مع أبي جعفر، حيث تجنيده المزعوم مع الأمريكان، أو انتقاله لأرض الفرات!

الفرات، وآه وآه على الفرات وحلم الفرات، وأمانينا في "دولة إسلامية في العراق والشام" أو سيأتي ذلك اليوم الذي أزور فيه العراق؟ أم أنني سأدفن ها هنا، وسينسى الناس أثري وذكراي؟

الذكرى في حد ذاتها تخلق فينا روحًا جديدة، بنسائم وروائح أحيائها ومشاعرها ورفقائها! وإني على عهد الذكرى لا أتنحى.

تنحيت في المقعد الخلفي ناحية اليمين شيئًا بسيطًا وفتحت نافذة السيارة حتى ثلثها الأول، لما مال السائق الهندي في منعطف قاسٍ داخل العقبة التي تنقلني لدائرتي، حينها انفعلت بعدما تنفست الصعداء وقلت له: شوي شوي يا صديق.

نظر لي نظرة المنتصر مع ابتسامة ساخرة لأنه استطاع أن يقذف الخوف في قلبي وقال: يا مدير ما في خوف، هذا كل طريق أنا معلوم، أنت في نوم، نوم.

تحولت حينها حدتي وانفعالاتي لقهقهات بصوت مُتحشرج باحتباس الدموع، وقلت في نفسي:

أكل من يمشي في طريقٍ يحفظه ويضمن عواقبه؟!

أغلقت كتاب صديقي المغمور، واحتضنت ثلثه كله، ووضعت كفي عليه، وكأنني سأقرأ عليه تعويذة "خبرة الحياة" أو العالم ببواطن الأمور وماور ائيات الخبرات.

ثم خرجت أنفي من عند هذا الجزء المفتوح في نافذة السيارة، وتنفست رو ائح الدائرة التي حلت ببرودتها، ورفعت عيناي مع ثبوتية وضعية وجهي عند النافذة، أطالع النجوم.

أعدها.

واحدة اثنتان، ثلاث... عشر، واحدة وعشرون، أربع وثلاثون.

ثم تستمع أذني لا إراديًا لأصوات ارتطام حذاء الحارس -الذي كان- مع أرضية الطرقة -التي كانت- وأجد لساني يحضر بعدد جديد

مائتان وأربع وستون، مائتان وخمس وستون.

تتداخل أرقام قرقعات أقدام الحارس مع عدد النجوم.

أُخطئ العدد لأول مرة، ككل مرة كنت أخطئ فيها بعد خطوات الحارس البدين.

أعود مستلقيًا بقامتي على مقعد السيارة و أقول:

اشتقت طعامك يا أمي واشتقت العد لعشرة! عشرة فقط، فلا حاجة لي للعد الذي يصل إلى المئات.

يميل بي سائق السيارة في منعطف آخر قاس داخل العقبة، ولكنه كان الأقسى منذ بداية الرحلة، طالعت عداد السرعة، وطالعت عقارب ساعتي، وبدأت العد!